السنة الاولى   العدد ٥   ١ اذار سنة ١٨٩٨

المشرق

تنسيق المُزدرعات

لجناب الشاب الاديب سليم افندي اصفر

(تابع لما سبق)

قد بيَّنَّا فيما تقدَّم اخصَّ الاسباب الداعية لتنسيق المُزدرعات فبقي علينا ان نذكر نواميس هذا التنظيم وقواعدهُ

نواميس تنسيق المزدرعات

انَّ لتنسيق المُزدرعات دواعي اقتصاديَّة تختلف مع اختلاف الامكنة فنقطع هنا عنها النظر ونذكر فقط الاصول العموميَّة التي يُقتضى مراعاتها في اتخاذ هذا التنسيق وغير خافٍ انَّ ترتيب النبات مبنيٌّ على مُختلَف ما يُزرع فيها وينبغي على الزارع في اختيار زرائعهِ ان يعتبر مُقتضيات الهواء والمنبت ثمَّ طريقة اغتذاء النبات واخيرًا إنفاق الصادرات وترويج الاغلال الشتَّى

اوَّلًا . احوال الهواء والمَنْبِت — لا بُدَّ لكلِّ نبات من ثلاثة اشياء ينمو بها ويتَّصل الى غاية كمالهِ وهي النور والماء والحرارة . فهذه العوامل الثلاثة هي التي تقضي بتقسيم انواع النبات على وجه الارض كافَّةً . فيكون زرع بعض النباتات ممكنًا او مستحيلًا على حسب اقاليم البلاد المختلفة . والحرارة لما في ذلك المقام الاوَّل فهي افضل عامل لتركية الزريعة واثمانها . ومن ثمَّ فيكون أولى للزارع ان يكتفي بما يجدهُ في بلدهِ من انواع النبات فيُعنى بتحسينها . او اذا اراد ان يدخل زرعًا جديدًا فعليهِ ان يلاحظ اعظم درجة يبلغها ميزان الحرارة او اقلَّ درجة ينحطّ اليها سنويًا في بلدهِ . هذا الى معرفة درجات الحرارة التي يقتضيها كلُّ صنفٍ من الزروع لينبت مع حساب مجموع كميَّة هذه الحرارة لينمو الزرع ويأتي بثمر

ولكن هذه ملاحظات لا ينتفع بها الَّا من تخرَّج بالعلوم الكيماويَّة والفيزيولوجية

وهي تقتضي اختبارات متوالية يقوم بها في موقع مناسب من كان جديرًا بعملها. اما العامّة فمن المحال ان يُطلب منهم مثل هذه الامتحانات. ولكن اذا كان الزارع فهيمًا فانّ اختباره اليوميّ وتجربته الخاصّة تقوم لهُ مقام هذه الامتحانات العلميَّة فيمكنهُ ان يزرع الزرائع الاجنبية في قسم صغير من ملكهِ ولعلّهُ اذا انتظر نموّها بصبر ينال مبتغاهُ بعد سنين قليلة

وهذه نتيجة بعض اختبارات وصل اليها علماء فنّ الزراعة. قال مسيو دي كَندول انّ اوّل طلوع الشعير يكون في درجة ٥ من الحرارة والقمح في ٦ والذُّرة في ١٥ الخ . واللُّوبيا يبدو زهرها في درجة ٨ وبقلة بوجيس (sainfoin) بين درجتي ١١ و١٢

وقد بحث العلّامة بُوسِينغو وغيرهُ في مجموع كميّة ما يقتضيهِ من الحرارة كثير من النبات فعيّنوا الدرجتين العظمى والسُّفلى من الحرارة التي تتردَّد بينهما اخصّ الانواع المزروعة . وهذا بيانها:

انواع الزرائع	درجة الحرارة السفلى	درجة الحراة العظمى	أنواع الزرائع	درجة الحرارة السفلى	درجة الحرارة العظمى
حنطة الخريف	١٩٦٠	٢٢٥٠	حنطة الربيع	١٨٧٠	٢٢٧٥
شعير الشتاء	١٧٠٠	٢٠٧٥	شعير الربيع	١٦٠٠	١٩٠٠
القُرطمان (الشوفان)	١٩٤٠	٢٣١٠	الذُّرة	٢٣٧٠	٣٠٠٠
الرزّ	٣٥٠٠	٤٥٠٠	الشَّمندر	٢٤٠٠	٢٧٠٠
اللّفت	١٤٠٠	١٦٠٠	الملفوف	١٥٥٠	١٨٠٠
البطاطة	١٣٠٠	٣٠٠٠	الكتّان	١٦٠٠	١٨٥٠
الخشخاش	٢٢٥٠	٢٧٨٠	الحمّص	٢١٠٠	٢٨٠٠
العَدَس	١٥٠٠	١٨٠٠	اللوبياء	٢٤٠٠	٣٠٠٠
الكِرسنّة	١٧٨٠	١٩٢٠	الجلبّان	٢١٧٠	٢٨٤٠
الباقلاء	٢١٠٠	٢٣٠٠			

والاختلاف بين درجتَي الحرارة العظمى والسفلى يصدر عن اسباب شتّى . ومن المعلوم انّهُ في البحث عن خواصّ كلّ اقليم لا يكفي ملاحظة الحرارة وحدها بل ينبغي مراعاة امور غيرها . (واوّل) ذلك النور وهو اقوى عامل في تحليل الحامض الكربونيك الذي

تمتصهُ النباتات من الهواء. وفي تبخير الماء الصادر من اوراق النبات. وقد بيّنت امتحانات العلماء بوسنيار وفلاهو وتخيين انَّ ثقل الكربون الذي يمتصهُ النبات يزيد بنسبة ما يجتذبهُ الى نفسهِ من النور فهضمُ النبات فكربون ينمو مع اشتداد النور الى درجة فُضلى. (والسبب الثاني) لاختلاف درجات الحرارة في انواع النبات ينتج عن رطوبة الجوّ. فانَّ نموَّ غلَّة الزراعة يتأتى تأثُّنا شديدًا بتوفُّر كمية الماء المتحوّل في مسامّ النبات. وقد بيَّن العلّم هال انَّ التبخير في النبات انّما هو اكبر عامل يمكّن الجذور انْ تمتصَّ الموادَّ من الارض وذلك لانَّ عروق النبات تفرغ بالتبخير فتتصاعد المائيّة من الجذور الى اقسام النبات فيقوى الجذر على امتصاص الموادّ من الارض. (والسبب الثالث) لاختلاف الحرارة النوعية في النبات انّما يكون ايضًا من كمية المطر النازل سنويًا. (والسبب الرابع) هي الدرجة العليا او السفلى التي تبلغ اليها حالة الجوّ في السنة. ولكل بلاد او قسم منها حدَّان من الحرارة تتردّد بينهما حالة الجوّ. وكثيرًا ما تبني معرفة هذه الحدود زراعة بعض انواع النبات

امّا (الارض) فمن المتبادر انَّ بسبب خواصها الطبيعية وتركيبها الكيماوي وعمق تربتها يزيد او ينقص ما فيها من الجدارة لتربية كلّ نوع من النبات

ثانيًا. طريقة اغتذاء النبات — انَّ النبات يتركّب من عناصر محدودة العدد غير انّها تمتزج على طرائق لا تُحصى. وهذه العناصر منها آليّة ومنها معدنيّة كما ترى:

عناصر النبات الآلية	عناصر النبات المعدنية	
الكربون	الفُسفور	الكلور
الاكسيجين	البوتاس	المغنيسيا
الهيدروجين	السوديوم	الحديد
الأزوت	الكلسيوم	الالومينيوم
	السيليسيوم	المنغنيس
	الكبريت	

فهذه العناصر ليست منفردةً في النبات بل ممتزجة على طرائق شتّى. وانّما النبات يقتبسها من التربة والجوّ ويحيلها الى جوهر نسيجهِ. ولكن اذا اراد الزارع ان يغذي زرعهُ فلا يتحتَّم عليه اختيار سماد يجمع كلّ هذه العناصر فيردّ للارض ما احتوتهُ منها الغلّات وذلك

لانَّ بين هذه الموادّ ما ليس وراءه كبير امر. ولأنّ الزروع تمتصّ ايضاً من الجوّ ما تحتاج اليه من اكربون وتنال حاجتها من الاوكسيجين والهيدروجين بتحليل الماء.

والموادّ التي يجب على الزارع ان يعتبرها كاصول الغذاء لنباته فيهتمّ باقتنائها ليحفظ للارض خصبها انّما هي الموادّ التي تدخل فيها تركيبات الازوت والفُسفور ثمّ البوتاس

فكي تحفظ التربة ما فيها من الدسم فتزيد ثروتها وتنمو غلّتها (وهي الغاية التي لا بدَّ من الحصول عليها بتحسين الارض) ينبغي ان يعرف الزارع ما ينتزعهُ كلُّ نبات من موادّ التربة الخصبة فيردُّها لها. وموادّ هذا العياض انّما يشتمل عليها السواد (الزبل) والسَّماد الكيماوي

وليعلم الزارع انَّ ردَّ هذه العناصر الثلاثة المذكورة للارض لا يكون على حدّ سواء. فانَّ الحامض الفسفوريّ مثلاً لا غنًى للارض عنهُ فلا بُدَّ من ردّهِ اليها على قدر ما فقدت منهُ. وليس الامر كذلك في البوتاس فانَّ فعلهُ في إنماء الزروع اقلّ نفعاً. وكذا قل عن الازوت لانَّ النبات يستخرج من الهواء قسماً من الازوت فضلاً عمَّا يجدهُ منهُ في الارض فيمتصّهُ. وهذا الامر قد ظهر جليًّا بعد اختبارات الأستاذَين بوسينغو وهوفي منتون فلاحظا بعد المقابلة انَّ كميّة الازوت الذي وُجِد في الغلّة بعد دَوْر تبديل النبات تفوق كميّة ما كان موجودًا منهُ في السَّماد في المدَّة ذاتها

وزد على ذلك انَّ للنبات قوّة جاذبة يقوى بها على ان يأخذ من التربة حاجتهُ من كل عنصر فيحيلهُ الى جوهرهِ مهما كان في الارض من تناسب الموادّ وموازنتها

فيقتضي الامر اذًا ان يقوم الزارع بحاجة الزرع الى الغذاء. ولذلك يجب ان يختار ما تقلّ عليه كلفتهُ ويزيد به ربحهُ. ولا يجد احسن وسيلة الى ذلك غير تنسيق المُزدرعات. فاذا أحسنَ تنظيمَ ارضهِ وتقسيم زرعها لا يتحتّم عليه ان يردّ للارض مقدارًا من الموادّ الخصبة. ولو أغفل هذا التنسيق ذهبت اقسام من هذه الموادّ سدًى لا يُنتفع بها اللهمَّ اذا ما اختلفت شروط الحرارة والتربة وغير ذلك من احوال النبات. فالبقول مثلاً لها قوّة تختزن بها عنصر الازوت وذلك لان في جذرها انواعاً من الفُطر تجتذبهُ. وهذه الفُطور هي من العوامل المولّدة للنُّطرون في الارض وبذلك يكون الازوت اقرب منالاً للنبات. وعليه فلا يلزم لهذه البقول الَّا قليل من عنصر الازوت. ويمكن ايضاً اقتصاد الازوت بتعقيب البقول بالحبوب التي تستغني عن الازوت

واخيرًا ربَّما احتوت بعض قطع الارض مقدارًا وافرًا من بعض الموادّ الخصبة التي تلائم

نوعاً من النبات دون غيره فاذا لم تبدل الزريعة بقيت هذه المواد بلا فائدة

ثالثاً. تنفيق المحصولات — ان هذا الامر اول ما يقتضي مراعاته في تنسيق المزدرعات فيختار الزارع ما يرجو به من غلته الربح الطائل لا سيما اذا جاور معامل يروج فيها شيء من هذه الزرائع. فيحسن مثلاً ان يزرع الشمندر بجوار معامل السكر وفستق الارض المعروف بفستق العبيد قرب معاصر الزيت. وكثيراً ما تقضي سهولة نقل الغلات من بلد الى آخر باتخاذ بعض الزرائع دون غيرها. كما انه تستدعي احوال التجارة باختيار انواع منها في بعض الاوقات لرواج سوقها. ولا بد من اعتبار ما يتكلفه الزارع لنقل غلاته فربما زادت هذه الكلف فلم توازن المحصول. الا انه قد توفرت اليوم اسباب نقل الصادرات بتقدم البلاد وسوف تزيد مع الايام

هذا واننا لا نحصي في عداد الزرائع الداخلة في تنسيق المزدرعات الحدائق والكروم ومغارس الزيتون والغابات والمروج والبقع المستنقعة

اساليب القدماء والمحدثين لتنسيق المزدرعات

أولاً. تبديل المزدرعات كل سنتين — هذا اول اسلوب جرى عليه الاقدمون في تنسيق المزدرعات فكانوا يحوّلون اراضيهم اي يتركونها بوراً في حول ثم يزرعون الحبوب في الحول الآخر. وكانت عادة الرومان في بادئ الامر تعقيب البور بالبذور الشتوية. غير ان هذه الطريقة كانت مخلّة تدع التربة بلا جدوى مدة سنة في كل عامين فاستبدلوها بطريقة اخرى بان يزرعوا البقول سنة والحبوب الشتوية سنة اخرى

ثانياً. تبديل المزدرعات كل ثلاث سنين — ولم يلبث الرومان ان آثروا اسلوباً مختلفاً فكانوا في السنة الاولى يدعون الارض بائرة ثم في السنة التالية يزرعونها قمحاً ويعقبونها في السنة الثالثة بزرع القرطمان (الشوفان) او الشعير. فكان لهذا التنسيق خللان احدهما تفقد منافع الارض سنة في كل ثلاث سنوات. والآخر تعقيب البذور مدة سنتين متواليتين في بقعة واحدة فتفتقر الارض الى موادّ ازوتية لا يقدر التسميد وحده يعيدها للارض

واصلاح هذين الخللين يكون باتخاذ تنسيق الثلاث سنوات وهو الاسلوب المعروف بالفلمنكي وطريقة حسنة تتوقف على ان تزرع الارض في سنة أولى بالزروع المنظّفة كالبطاطة والشمندر (راجع ص ١٧٨). وفي الثانية تبذر فيها البذور. وتليها في الثالثة البقول

ثالثًا. تبديل المزدرعات كلّ اربعة احوال — تنسب هذه الطريقة للعالم نُرْفُلك وهو كان يبتدئ في العام الاول بالزروع المنظّفة. ثم يشفعها في الثاني بالحنطة او الشعير. وفي الثالث بالبقول. ويعود في الرابع الى الشعير او الحنطة. وهذه الطريقة هي الطريقة المُثلى في تنسيق المزدرعات اوّلًا لان البذور لا تتعاقب في البقعة الواحدة. ثانيًا لانّ ما يُلقى على الزروع المنظّفة والبقول من الدمال (الزبل) تستفيد منهُ الحبوب في السنة التالية فتبقى سوقها مائلة لا يصيبها ارتخاء. ثالثًا تصبح البقول نفسها بتوسّطها بين زرعَي بذورٍ كسماد حسن للارض يقوم لها مقام زيادةٍ في الازوت لان البقول كما بيّنّا سابقًا تستخرج الازوت مما يحيط بها من فضاء التربة بواسطة فطر ينمو في كموب جذورها

هذا ويوجد طرق اخرى كثيرة لتنسيق المزدرعات منها الاساليب ذات الاحوال الخمسة وهي على انواع لا حاجة لتعدادها. وقد اكتفينا هنا بذكرِ أولاها واقربها للاستعمال. والزارع اذا ما احرز المبادئ التي شرحناها سابقًا يمكنهُ ان يختار بنفسهِ طريقة من التنسيق توافق غايتهُ. وعلى كل حال فليتذكَّر انّهُ يصلح للارض ان تُترَك بائرةً بلا زرع اذا كان موقع المزارع بعيدًا من المجتمعات المدنيَّة او يصعب نقل غلأتها وكانت اسعار الاراضي بخسةً والتربة قويّة مكتنزة. وفي خلاف هذه الظروف لا يصلح ان تبور الارضُ

تنسيق المزدرعات في سوريَّة

قد اعتاد السُّوريون تنسيق المزارع منذ عهد قديم. ولهم في ذلك اساليب شتَّى منها مُخلّة لا خير فيها. ومنها حسنة من بعض الوجوه لكنَّها باقيةٌ على حالها السابق لا تنتفع بما نال الوطن من التحسينات الاقتصادية. واكثر هذه الاساليب شبيهة بطرائق قدماء الرومانيين التي لا يزال بعض ارباب الفلاحة يستعملونها ايضًا في انحاء من اوربَّة وقد ذكرنا ما فيها من الخلل

اوّلًا. تنسيق المزارع في حوران — يغلب عندهم تنسيق التحوُّل من البور الى البذور. وهذه الطريقة ليست بمستكرهة في البُقَع اليابسة التي لا تنبت الكلأ لانّ الزارع يستثمر بها من الارض ما امكن وفي سنة البور ترعى المواشي ما اتت بهِ الارض طوعًا من الاعشاب

ثانيًا. تنسيق المزارع في البقاع — عادة الفلأحين في البقاع ان يعقبوا ببور سنةٍ زرعَين من البذور هما الحنطة والشعير. وهذه طريقة سوء شرحنا ما فيها من الفساد ولعلّ مضارَّها

تخفُّ لحسن التربة وثروتها بالموادّ الخصبة المغذية ولما يُلقى عليها من السماد. وهناك قطعان عديدة من الماعز ترعى الاراضي في فصل الصيف على اختلاف الادوار فيُغني سرادها الارض ويخصبها

ودونك طرائق اخرى يستعملها البعض فيزرعون في السنة الاولى البقول كالحمّص والكرسنّة والترمس. وفي الثانية يزرعون الحنطة ويلحقونها في الثالثة بشعير الخريف. وغيرهم يدعون الارض بائرة في سنةٍ مع عزقها في فصل الخريف. وربّما فلحوها ثلاث مرّات وهي طريقة فُضلى. وفي السنة الثانية يزرعون الحنطة وفي الثالثة الشعير

وهاتان الطريقتان الاخريان ليستا بمستكرهتين نسبةً الى ما تصيبهُ الارض من السماد الوقتي وذلك ممّا يخفّف مضارّ زرعين متواليين من البذور في البقعة الواحدة. ولو ابدل اهل الفلاحة بذر السنة الثالثة بزرعٍ من البقول لأصابوا المرمى وزكت المزارع كما يشاؤون. والله الهادي الى الصواب

عَنقاء مُغرِب

لحضرة الاخ انستاس ماري دي سنت ايلي الكرملي الحاني

حدث لي حادث أرويهِ لقرّاء المشرق لغايتَين: الاولى تفكهةً لهم والثانية ابداء لرأيهم في هذه المسئلة. وهي: في سنة ١٨٩٦ فوّضني رئيسي بالذهاب الى البصرة قضاء لأمرٍ يتعلّق بشؤون رسالتنا فيها. وفي ذات يومٍ بينما كنتُ راكبًا زورقًا مع احد ادباء المسلمين البصريين رأيتُ طائرًا غريبًا انحدر على شاطئ النهر على قريبٍ منّا. فامعنتُ النظر وتفرّستُ فيهِ حتى انطبعت صورتهُ في مخيلتي وهي لا تبرح منها الى اليوم. ثمّ طار وغطس في النهر وظهر على بُعد ثلاثمائة مترٍ. فلمّا استغربتهُ قلت لصاحبي: ما هذا الطائر وما اسمهُ قال: هذه عُنقاء مُغرب. وما لفظ الكلمة إلّا واستغربتُ. فقال لي: وما الذي يضحكك من كلامي؟ قلت لهُ: قولك: هذه عنقاء مغرب. أتظنّني غِرًّا حتّى تسرد عليَّ هذه الرطازات وتنفق عليَّ بضائع هذه الخزعبلات بينما أعلم انّ جميع العلماء والمؤلّفين متّفقون على رأيٍ واحدٍ بعدم وجود هذا الطائر أفلستَ من ابناء العرب او لم تسمع ما قال الشاعر:

الغُول والخِلُّ والعنقاء ثالثةٌ اسماء اشياء لم توجد ولم تكنِ

قال اني لا اجهل الامر ومع ذلك فاني اوكد لك أنها العنقاء لا على ما وصفها بعض العرب حتى اخرجوها مُخرَج الخرافات وترعوا في قوس حقيقتها حتى قطعوها بعد ان ضاق بها المنزع بل هي الطائر الذي وصفهُ بعض من يروي الامور عن ثقةٍ وخبرة وعمّا يحقق بنفسهِ لا عمّا يَسمع من غيرهِ. وبينما هو يندفع في الكلام ويتدفق فيه كأنهُ الوَدق من الرُكام اخذتُ انصتُ اليهِ واعياً لِمَا يَنسبُ لي وانا عُنُقٌ اليهِ. ثم قال: انا سُمّي هذا الطائر باسم العنقاء لطول عنقهِ. وهو مما تفرّد بهِ عن سائر حيوانات الارض وأطيارها نسبةً الى جسمهِ. ووصف بالمُغرب او المُغربة لانَّ هذا الطائر اذا حلّق في السماء يبلغ علوًّا شاهقاً حتى يَغرُب عن الابصار. ولمّا يغوص في الماء يغيب فيهِ زماناً طويلاً حتى لا يكاد يصدّق عاقل بطول زمان غيابهِ لو لم يرَهُ. قلت لهُ: وهل هذا الطائر كثير المِثل هنا قال لي: كلّا. بل هو نادر الوجود لا بل وجودهُ اليوم هنا من غريب الاتفاق والصُدفة. قلتُ: وهل يأتي كل سنةٍ. قال: لا لأنَّ هذه البلاد ليست وطنهُ فهو يأتينا من بلادٍ نجهلها لكنهُ يتيهُ في البحر احياناً فيقع هنا تعِباً مَنهوكاً. قلتُ: وكم من مرةٍ رأيتهُ في حياتك (وكان عمرهُ نحواً من ٣٥ سنة). قال: مرّةً واحدةً. قلت: وكيف لم تنسَهُ. قال: وكيف انسى امرًا فعل في نفسي كلَّ الفعل. ثم قال: ولِمَ هذه الاسئلة التي لا فائدة فيها. فها إني آخذك الآن الى منزِلي وأطلعك على كتاب ينطبق وصفهُ لهذا الطائر على ما رأيناهُ لكن اسألك ان تتذكّر بهذه الامور وهي: انهُ حسن الخَلق والخُلق. طويل العُنق. عندما يسبح تقوم على رأسهِ جُمّة كأنها جُنّة. ويُدَلّي من اسفل الحنك بعَرض النون (شفرة السيف). شيئاً كأنهُ العُثنون. وفي ريشه من اختلاف الألوان. ما يُذهل كل انسان. أتحقّقتَ كل ذلك قلتُ لهُ: نعم وحقّقتها احسن تحقيق. لكني ارى في كلامك تكلُّفًا يحول دون السرعة في التصديق

ثمّ اخذني الى منزلهِ وفتح امامي كتاب حياة الحيوان وقرأ عليَّ ما يأتي نصهُ بحرفهِ الواحد: «قال ابن خلكان ورأيت في تاريخ احمد بن عبدالله بن احمد الفرغاني نزيل مصر ان العَزيز ابن نِزار بن المُعزّ صاحب مصر اجتمع عندهُ من غرائب الحيوان ما لم يجتمع عند غيرهِ فمن ذلك العنقاء وهو طائر جاءهُ من صعيد مصر في طول البَلَشون لكنهُ اعظم جسماً منهُ لهُ لحية وعلى رأسه وقاية وفيهِ عدّة ألوان ومُشابهة من طيورٍ كثيرة» (اه). فلمّا قرأ عليّ ذلك لم أعُدْ أُجيبهُ ببنت شفة. لكني بقيت على فكري حاسباً كلّ ما رأيتهُ من غريب الاتفاق ليس إلّا

فلما عدت الى بغداد اخذتُ افتّش في كتُب الفرنج عن الطائر الذي رأيتهُ. فاخذني كلّ العجب حينما وقعت اعيني على صورتهِ كانها أُخذت بالتصوير الشمسيّ. وبلغ العجب مني أوجَهُ حينما رأيت اسمهُ يوافق اللفظ العربيّ. فقرأتُ وصفَهُ فاذا هو وصف الطائر الذي كنتُ رأيتهُ في البصرة. ومذ الحين اخذني الشكّ في صحة كلام رفيقي البصريّ وهو الى اليوم فيَّ لا يتجاوز الشكّ إذ قلتُ في نفسي: من المحقّق ان العرب قد بالغوا في وصف بعض الحيوانات والطيور حتّى اخرجوها عن التصديق ولعلّ حظّ العنقاء من حظّ هذه الحيوانات وحظّ هذه الطيور

أمّا ما قرأتهُ في كتُب الفرنج فهو ما يأتي اذكرهُ بحرفهِ المعرَّب إتمامًا للفائدة وإيقافًا على حقائق الامور. قال احد كتبتهم في هذا الموضوع: «العنقاء (١ Anhinga Levaillant (Plotus Levaillant) تمتازا بدقّة عنقهـا وطولهِ الفاحش ورأسها اسطوانيّ الشكل ومنقارها مستقيم رقيق محدّد وقامتها لا تتجاوز قامة البطّة كبرًا ولون منقارها اصفر واعلى رأسها وخلف رقبتها احمر آجُريّ وعليهِ حاشيةٌ سوداء تنزل الى الكتفين وجبهتُها وعارضاها وجانبا عُنُقها ابيض ناصع ونحرُها ومقدَّم عنقها اصفر أكمد بلون المُغرة وصدرها واسفل جسمها أسود قاتم بَريقهُ الى الخُضرة ولونُ ظهرها وريش جَناحَيها الصغير أَضحَم ووسط كل ريشةٍ أصدأ قاتم وبذنبها اثنتا عشرة ريشة متوترة طويلة لا تُناسب تقاطيع جسمها. ولمّا تغوص في الماء او تتوارى بين حشيش الشواطئ تُلَوِّب عُنقَها الطويل فيتموّج ويتمعّج كأنهُ حيّة حتى ان الناظر اليها يأخذهُ الفزع والجزع

«وتسكن العنقاء البلاد الحارّة من شطرَي كُرَة الارض وتأوي تارةً الى المياه العذبة وطورًا الى الفيافي والقفار وطعامها الدود والحيوانات الرخوة وصغار السمك وتنـام على الاشجار وتعشّش على أعلى الأفنان والأغصان وتطير الى عُلُوّ شاهقٍ وبسرعة غريبة وتسبح بخفّةٍ عجيبة. وهي كثيرة الحذر اذا سمعت أدنى صوتٍ انغطّت في الماء ولا تظهر إلّا على بُعدٍ شاسع لتستنشق الهواء ثم تغرب ثانيةً وصيدها صعب للغاية. ولا تُفاجأ لا على الماء ولا

(١) ان الافرنج يبدلون العين لعدم وجودها عندهم بحرف الهاء وهو اقرب الاحرف الفرنجية الى الحرف العربي من سائر الحروف كما قالوا (Alhidad, Mahonne) في الماعون والعضادة. ويقع عندهم ابدال اللام بالنون في وسط الكلمة كما قالوا (Gengéli) في جلجلان فضلًا عن انهُ يقع مثل هذا الابدال نفسهُ في اللغة العربية وامثال ذلك كثيرة عند اصحاب اللغتين

على الغبراء اذ تكمن بين القصب والأباءة». انتهى تعريباً عن كتاب (Encyclopédie de l'Enfance, N° 108)

فمن قرأ هذا الوصف وتدبَّر بما نقلناهُ ورأيناهُ يتعجب من المطابقة الموجودة في الكلامين. غير ان ما رأيتهُ ونقلتهُ هنا عن الفرنج لا ينطبق كل الانطباق على ما ذكرهُ الدميري نقلًا عن ابن خلكان: فالعنقاء اعظم جسمًا من الباشرون بقليل لكنها ليست بطوله والجُمَّة لا تظهر الّا عند السباحة حينما تَزْبَئِرّ والظاهر من كلام ابن خلكان ان الوقاية التي على رأسها تُرى دائمًا. وكذلك القول في المثنون. فهو شيء يكاد لا يُذكر تُدلِّيهِ عند السباحة ايضًا. امَّا ما وصفهُ بهِ الفرنج فينطبق كل الانطباق على ما رأيت بعيني وسمعتُ من البصريّ. وعلى كلٍّ فان الاسم الفرنجي ومسمَّاهُ يصدق كل الصدق في هذه الحالة ولعلَّ الفرنج اخذوا هذه التسمية عن عرب هذه النواحي اذ لا معنى لهُ في لغتهم ثم لعلَّ العرب المُحدَثين حوَّلوا معنى اللفظ الاصليّ الى مسمًّى آخر يصدق عليهِ بعض هذه التسمية. وهذا عندي اقرب الى الصواب والله اعلم

هذا واختم كلامي راجيًا من اولي النظر والنقد ان يتحفونا بشيء مما يبدو لهم في هذا الصدد تمحيصًا لحق ونورًا للباحثين والسلام على من طلب الهُدى واتَّبعهُ

جواب المشرق

اذا ما قرأنا في تآليف القدماء شيئًا عن امور طبيعيَّة تدهش عقلنا وتظهر انها مباينة لما نعهدهُ الآن او لم يبقَ منها في ايامنا اثر يلزم ان نتروَّى في حكمنا ولا نجزم لاول وهلة انَّ الخبر عارٍ عن الصحَّة ما لم يصرُح الحق بالبراهين البيِّنة كما انهُ لا يجب تصديق الامر اذا لم يقترن بالأدلَّة. فانَّ كثيرًا من الدبَّابات والطيور عاشت في سالف الزمن على وجه ارضنا ولا وجود لها الآن. وقد اكتشف العلماء على آثار حيوانات عظيمة الاجسام دثرت وبادت من عالم الكون ومحفوظة هياكلها او بعض اجزائها في قاعات متاحف الشعوب المتمدّنة. وهي الشاهد على ما كان في ارضنا وجوَّنا من الحيوانات الجسيمة مثل المموث المحفوظ هيكلهُ في متحف بطرسبرج وكان يبلغ علوّه ستة امتار والحرباء المجنَّحة (Pterodactylus) والبليسيوسوردس وكان يبلغ طولهُ عشرة امتار

ولا ريب ان في ما اوردهُ كَتَبة العرب عن بعض الطيور سواء كان في تواريخهم او في

الحكايات المصطنعة مبالغةً لكنهُ ليس برمَّتهِ محض اختلاق فاذا ما جرَّدناهُ من الغلو المفرط وقفنا على الحقيقة

ورأْينا في عنقاء مغرب هو ان هذا اللفظ أُطلق اوَّلًا على طائر حقيقي عظيم الجثمان كان يعيش في الجهات الحارَّة القريبة من خطّ الاستواء في جزائر البحار التي بين الهند والصين ثم اخذ التجار من العرب المسافرون الى تلك البحار والارضين يخبرون عنهُ عند عودتهم الى اوطانهم فيغالون في عظمه وقوته ويبالغون في وصفه حتى اخرجوهُ عن حدّ التصديق. فكانت نتيجة هذه الاقاصيص ان اسم العنقاء اصبح عند العقلاء كناية عن طائر خرافي لا وجود لهُ اصلًا

امَّا العامَّة فكانوا لا يترددون في قبول ما يُقال عنهُ من الخُزَعبلات مصدّقين ذلك دون رويَّة ولا تثبُّت ولذا ننظر ان المخبرين عن العنقاء والكاتبين في شانها في طرفَي نقيض. فهذا الدميري يصفها بما يكاد يخرجها عن باب الممكن فيقول ان «بيضها كالجبال» وان «عند طيرانها يُسمع لاجنحتها دويّ كدويّ الرعد القاصف» الى غير ذلك من الاوصاف التي تضحك الثكلى وتجعل ذوي الذوق السليم يهزُّون الرأس. اما المسعودي الذي سافر في بحار الهند وحلّ في جزائرها وكان ذكي العقل سديد الرأي غزير المعرفة فانهُ ينفي وجود العنقاء فيقول «والناس يذكرون عنقاء مغرب ويصوِّرون العنقاء في الحمَّامات وغيرها ولم اجد احدًا في هذه الممالك ممَّن شاهدتُهُ او نمى اليَّ خبرهُ ذكر انهُ رآها ولست ادري كيف ذلك ولعلَّهُ اسم لا مسمًّى لهُ (١)». وقال ايضًا «وانما ذلك من هوس العامَّة واخلاطها كما وقع لهم في خبر عنقاء مغرب... ونحن لم نُحِلْ وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك ممَّا اتصل بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر في العالم من طريق العقل وان ذلك غير ممتنع في القدرة لكن أَبَيْنا ذلك لان الخبر القاطع للعذر لم يرد بوجود ذلك في العالم وهذا باب داخل في حيّز الممكن الجائز خارجٌ عن باب الممتنع والواجب (٢)». امَّا معظم ما كتبهُ الفرنج قديمًا عن عنقاء مغرب ويسمّونها griffon (٣) فمأخوذ عن اخبار العرب ولا عبرة بهِ

---

١) في كتابهِ مروج الذهب الصفحة ٢٩ من المجلَّد الثالث. طبعة باريس

٢) المجلَّد الرابع الصفحة ١٥

٣) هذه اللفظة يونانية الاصل (غريبس غريبوس γρυψ γρυπος) وتعني طائرًا من الجوارح هو العقاب. ولمَّا اتصل بالفرنج وصف العنقاء الخرافية مع جهل اسمها اطلقوا عليها اسم العُقاب griffon

ومن تناقض الآراء في العنقاء واختلاف المؤرخين والعلماء في شأنها نتج ان عامة الناس لدى مشاهدتهم طائرًا نادرًا غريبًا في الشكل والقدر اطلقوا عليه اسم العنقاء وان لم يكن بها. وهكذا هو الامر فيما نرى في الطائر الذي يتكلم عنهُ حضرة المراسل. لانهُ يوجد بون عظيم بين العنقاء وطائر لا يتجاوز جسمهُ كبر البطة فاذا نفينا ما لا يُصدَّق عنها يستنتج من كلام العرب في شأنها انها كانت اكبر بكثير ممَّا ننظرهُ الآن

ولعلَّهم سمُّوا بعض الطيور بالعنقاء لطول عنقها كما ذكر ذلك الدميري حيث قال «وسمِّيت العنقاء لطول عنقها»

ولنا برهان على ما ابديناه من الرأي بشأن العنقاء ما كُتب في طير الرخّ والشيء بالشيء يُذكر

فقد وصف ابن بطوطة طير الرخّ بما يبعدهُ عن الواقع ولا يحتمل تصديقهُ. على انَّ وصفهُ لا يخلو من الحقيقة ويثبت على الاقلّ انهُ كان عظيمًا جدًّا بما لا مثيل لهُ الآن. قال عند ذكر رجوعهِ من الصين الى الهند (في الصفحة ٣٠٥ من كتاب رحلته المجلد ٣ طبعة باريس) «ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينهُ نحو عشرين ميلًا والريح تحملنا الى صوبهِ فعجب البحريَّة وقالوا لسنا بقرب من البرّ ولا نعهد في هذا البحر جبلًا وان اضطرتنا الريح اليهِ هلكنا» الى ان قال: «وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينهُ وبين البحر فعجبنا من ذلك ورأيت البحريَّة يبكون ويودّع بعضهم بعضًا فقلت: ما شأنكم. فقالوا: ان الذي تخيَّلناهُ جبلًا هو الرخّ وان رآنا اهلكنا. وبيننا اذ ذاك وبينهُ اقلّ من عشرة اميال. ثم انَّ الله تعالى مَنَّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبهِ فلم نرهُ ولا عرفنا حقيقة صورته. وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى الجاوة ونزلنا الى سُمَطرة». فاذا جرَّدنا هذا الوصف من المبالغة البيّنة لا يسعنا انكار وجود هذا الطائر المذكور وعظم جسمه

وورد ايضًا في حكايات الف ليلة وليلة في قصَّة السندباد البحري في سفرتهِ الثانية انهُ رأى في جزيرة قبَّة كبيرة شاهقة ملسة ناعمة لا باب لها فلم يطق الصعود اليها لملاستها. وكانت استدارتها خمسين خطوة وانهُ رأى في الجوّ غيمة كبيرة فتأملها واذا هي طير الرخ الذي يخبر عنهُ البحريُّون وتلك القبّة هي بيضتهُ (١) الى غير ذلك من الوصف

١) وفي ما ورد عن هذا الطائر في كتاب الحيوان للدميري مبالغة تفوق ما حكاهُ السندباد البحري

الذي جعل هذه القصة من جملة الحكايات الخرافية · الّا ان واضع الحكاية اتخذ وجود طائر كبير في تلك الجزيرة اساساً بنى عليهِ حكايتهُ فبالغ وغالى واختلق وخرق

فاذا عرّيناها من المبالغة لا مانع من قبول ما استتر تحت رداء الاختلاق اي وجود طائر عظيم الجسم سمّوه الرخ · خصوصاً اذا اتت اكتشافات العلماء مؤيدة لذلك · فلو ذكرنا في مجلّتنا انهُ يوجد طائر بيضته ستة اضعاف بيض النعام لكذّبنا السواد الاعظم من القرّاء مع ان الامر متقرّر علمياً · وقد اخبر الجغرافيّ الشهير اليشع رِكلو في كتابهِ الحديث « الجغرافية العمومية » ما يكاد يتوهمهُ القاري زائغاً عن الحقيقة · وركلو هذا هو من عداد الرجال الطبيعيين الماديين الذين لا يذعنون الّا لآراء العقل · فلا يمكنا ان ننسب اليهِ السرعة في تصديق الامور وقبولها عن غير رويّة · قال في معرض كلامهِ عن حيوانات مدغسكار في الصفحة ٨٤ من المجلد ١٤ ما ترجمتهُ حرفياً « قديماً اي منذ نحو مائتين او ثلاثمائة سنة كانت هذه الجزيرة تحتوي على طائر عظيم جداً من عائلة النعام سماه العلماء epyornis. وقد عرفهُ تجار العرب في القرون المتوسطة ووصفوه لمواطنيهم في اسمارهم فاثاروا فيهم الاندهال والعجب ألَا وهو طير الرخ او العنقاء griffon[1] الذي يخبر عنهُ مرقو پولو انهُ يقبض ببراثنهِ على الفيل وينقله الى قمم الجبال · وقد وُجدت بيضةٌ من بيض هذا الطائر وسعها ثمانية ليترات · وعليهِ فتكون ستة اضعاف بيض النعام · وقد اكتشف ايضاً العلاّمة غرانديديه على عظام هذا الطائر » اه

وكثيرًا ما سمعنا المرسلين في مدغسكار يذكرون انهم رأوا بيض طائر الرخ بوفرة في الجزيرة المذكورة

وعليهِ فوجود طيور عظيمة الاجسام في سالف الزمان بما لا نعهده في القرون المتأخرة لأمرٌ متقرّرٌ علمياً · امّا ما اتى بهِ حضرة المراسل من الوصف للطائر الذي شاهده فلا ينطبق على ما يصحّ نسبته للعنقاء من الكبر · ونرى ان تسميته بعنقاء مغرب انما هو لطول عنقهِ وغرابته · والله اعلم بالصواب

الاب انطون صالحاني اليسوعي

---

١) لم يفرق الكاتب بين الطائرين لعدم معرفته بالعنقاء

الكُحل

بقلم الدكتور شاكر الخوري مدرّس الاكلينيك العينيّ في المكتب الطبّي في كليّة القديس يوسف

كأنَّ الانسان لم يكتفِ بالامراض العديدة التي تُحيط بهِ حتَّى اخترع بعض امور تلذُّ لهُ ظواهرها وعاقبتها عذابٌ لهُ واوجاع. والمرء يُعذر اذا أُصيب بعلَّةٍ أتتهُ بقضاء ربّهِ من حيث لا يدري لانَّ اسباب الهلاك لا يعدُّها احصاء. فمها صنع الانسان لا يمكنهُ التملُّص منها جميعًا. لكنَّ من الامراض انواعًا لا علّة لها سوى ارادة من ابتُلي بها ومخالفتهِ للقوانين الصحيَّة فاذا اعترت احدًا لم يَستطِع ان يُبدي عذرًا لانهُ جلبها لنفسهِ باطلاقهِ العنان لشهواتهِ مع معرفتهِ بسوء عقباها فتراهُ لا يسمع كلام نذير ولا امر مدير ولا مختبر حتَّى تؤدّي بهِ الى هلاكهِ. فتبًّا لها من شهوات تضيع العقـل وتهدم الراحة والصحَّة. وتضحّي انواع الرفاهية في سبيل الهوى الباطل

وما يزيد في غرابة الامر انَّ بعض هذه الامراض ناتج عن إقدام الانسان على شيء يلتذُّ بهِ غيرهُ وهو لا ينال منهُ الّا الضرر والألم لكنَّـهُ يفعل ذلك ليُنسب اليهِ الجمال ولعلَّهُ هو خلوٌّ منهُ ولا يجهل كَذِب من يصفهُ بهِ

ومن جملة هذه العادات السَّيئة صبغ الشعر والتغمُّر اي طَلْي الوجه بالغُمْرة وانواع الاصباغ ثم كَحل العيون. ولا أتعرَّض هنا للعادتين الأُوليين فانَّ ما يتولَّد منهما من عاهات البَشَرة والجلد يجعلها خصيصَتين بعلم الامراض الجلديَّة واما تكحيل العيون فاني اتكفَّل باظهار اضرارهِ وشرح عواقبهِ لمن يستعملهُ طمعًا في استحسان غيرهِ لمنظرهِ. وكفى المتكحّل ذمًّا ما يُقال في حقّهِ انهُ ذو العين السوداء الكاذبة. واني استميح المعذرة من المتكحّلات اذا ما اتى شيء يسوءهنَّ في اثناء مقالتي هذه عن شرح مضارّ الكحل. فانني طبيب رَمَدي وبهذه الصفة اشاهد عددًا وافرًا من السَّيدات المُصابات بامراض في عيونهنَّ لا سبب لها غير الكحل. ولا يمكن للطبيب ان يرى عادة يتأتى منها عدَّة اضرار ويسكت عنها. فمن ثمَّ قد تكلّفنا هنا شرح ما تورثهُ هذه العادة الوخيمة من المرض في العيون ألا وهو الرَّمَد الكُحلي

وقبل الابتداء بشرح اعراض المرض. نذكر نبذة تاريخية عن هذه العادة الجارية في العالم من القِدَم ولا نعلم انَّ احدًا بحث فيها بحثًا مدققًا لتبيين مضارّها رغمًا عن قدمها.

وذلك ناتج عن عدم وجود اطبّاء مخصّصين لامراض العين قبل ايامنا هذه في البلاد الشرقية حيث تأصّلت هذه المادة المضرّة . واما اطباء الغرب فانهم لم يتكلموا عنها لانها قليلة عندهم واضرارها نادرة في بلادهم . فاكون انا اول مبشّر يُنذر المكحلات ويظهر لهنّ اضرار هذه العادة التي ابتدأت منذ ابتداء العالم

تاريخ هذه العادة

قد ذكرنا في كتابنا « صحّة العين » في فصل زينة العين عن تاريخ هذه العادة التي ابتدأت ولم تزل في الشرق فاحببنا الآن لاجل اتمام الفائدة ان نختصر ما قلناهُ وهو : ان هذه العادة قديمة كالعالم فكلّ من المصريين والكلدانيين والاسرائيليين كان يستعملها . وذكر المؤرخون دوديس وساءوس ونقولا دميسكيوس عن سردانابال ملك اشور انهُ كان يقضي مدّة من الوقت في تكحيل عينيهِ وصبغ حاجبيهِ وتحسين وجههِ . وذكر ايضاً مؤرخو اليونان واللاتين هذه العادة فنهم أرثيد قال ان النساء كنَّ يحششنَ حواجبهنَّ في الحلّ الخالي من الشعر ولم يكنْ يخجلنَ من تزيين العين بمسحوق ناعم او بزعفران قيليقية

وذكر بلين الطبيعي انهُ لم يكن يمضي يوم واحد على أهداب رجال زمانهِ ونساء عصره من دون ان تُصبغ . وذكر عدة مؤرخين عن استعمال مزيج من الاثمد والكبريت لتكحيل العين ومن جملتهم بلين المذكور . وفي الجيل الثالث عشر كانوا يعتبرون العيون السود اعتباراً عظيماً بحيث انَّ سواد العين كان يُعدُّ من اقوى الاسباب لاستمالة القلوب في ذلك الوقت فكانت صاحبة العين الزرقاء تجعلها سوداء بوسائط متعدّدة منها وضع عصارة الحُمْرة البلادونا داخل الجفن لان خواص هذه العصارة ان تمدّ الحدقة فتصير العين سوداء فكان ينتج من هذا التمدد المستديم ضرر عظيم بالبصر

امَّا اهل الصين فيستعملون ورق زهر الورد . والترك يحبّون اللون الاصفر الضارب الى الحُمرة فيتخذون لذلك المُصَيْفِرة (البلسين) . ولا نتعرَّض في مقالتنا هذه لبقية المواد المستعملة لصبغ الوجه والحواجب وان كان تأثيرها مضرّاً بالعين ايضاً وبالخصوص السيلداج الذي هو مركب رصاصي . وقد وجدوا في مدافن المصريين والفينيقيين مكاحل ومراود لاجل هذه الغاية ووجدوا ايضاً آلات غيرها للزينة مثل الامشاط والدبابيس والمرايا وغير ذلك وكانوا بالاكثر يرسمون على هذه الآلات صورة مسخ شنيع المنظر يدعونهُ البس

يزعمون انهُ زوج الزهرة إلاهة الجمال. وكانت غايتهم بهذا النقش ان يشيروا الى رجال قبيحي الصوَر

امّا المرايا فكانت كلّها مشوَّهة برسم هذا المسخ لا تخلو منهُ البتة. وغايتهم في ذلك ان يحسّنوا النساء في وجوههنَّ وذلك ان التي تنظر وجهها في المرآة تجد هيئتها دائماً جميلة بالنسبة الى صورة المسخ الشنيعة. واحياناً كانوا يرسمون شخص هذا المسخ قائماً بنفسه وحاملاً مكحلة فيها ميل يقدّمها الى المتكحلات

اعراض المرض

لا يمضي يوم الّا ويحضر الينا مرضى يشكون حرقاً في العين مع تدمُّع غزير. وبعد الفحص المدقّق نجد من الكحل كتلة وافرة في باطن الجفن السفلي وهو المسبّب لهذا الهيجان. وعدا عن ذلك نرى حافة الاجفان الملتصق عليها الكحل متهيّجة سميكة والغدد التي توجد بين انسجتها ملتهبة ايضاً وحافة الجفن محمرَّة ملتهبة ويصير الشعر سريع الانقصاف والسقوط حتى يتلف تماماً وينتثر فيصير المنظر كريهاً جداً. ويتعسَّر ابطال عادة التكحل لانَّ من اعتادهُ وُضِلت بذلك اهدابهُ يحاول اخفاء هذا التشويه الناتج من استعمال الكحل كما يحصل للذين يزيّنون وجوههم لكي يستروا التجعُّدات المسبَّبة من استعمال الزينة

وقد احصيتُ عدد هؤلاء المرضى فكان في هذه السنة ما ينيف على المائة والخمسين وجميعهم في سنّ الشبوبية. وكان خير علاج لهم ابطال هذه العادة فقط وبعض غسُولات لنظافة الاهداب من الكحل. ولعلّ جهل مضارّ هذه العادة كان سبباً لانتشارها في بلادنا

ويحتمل ايضاً انَّ هذه العادة لم يُجْرَ عليها فقط للزينة بل ايضاً تخفيفاً لاشعَّة الشمس الزائدة عن المقدار اللازم للبصر في البلاد الحارّة. وكان ذلك كالهام مطابق للطبيعة لان اغلب سكان البلاد الحارّة لهم عيون سود لاجل امتصاص واحتمال اشعَّة الشمس القويّة

تركيب الكحل الكيماوي

يوجد عند العامَّة نوعان من الكحل: الاصبهاني والحجري. وعند الكيماويين نوعان ايضاً الاول: كبريتور الرصاص والثاني كبريتور الانتيمون الاسود وهذا الثاني اكثر استعمالاً من الاول ويعتني الناس به اعتناءً كبيراً. فضلاً عن التأثير الموضعي الذي يفعلهُ في الهدب وفي

الجفن كجسم غريب فان فعلهُ الكيماوي اشدّ تأثيرًا خصوصًا على غُدَد ميبوميوس (Mei-bimius) وهي التي تفرز المادّة الدهنية لاجل نعومة الجلد والشعر فبالاتحادات الكيماوية التي تحصل بين هذه المادّة الدهنية وكبريتور الكحل تتولّد اجسام اخرى لها خواصّ مخالفة لخواصّ الموجودة في المادّة الدهنية فيفقد الشعر لينَهُ ويتقصّف. والغدد المفرزة تلتهب ويقلّ افرازها فتمسك حافة الجفن. ثم ان البوصيلات الشعريّة تصاب ايضًا فالشعر النابت فيها يكون ضعيفًا قليلًا ويتصل الالتهاب من حافة الاجفان الى الفتحات الدمعية وقنواتها ويسبّب انسدادها فيسيل الدمع على الخدود سيلًا مستمرًّا يلزم ان يتعالج من اعتلّ به معالجة طويلة المدّة

فهذه هي الاضرار التي اراها يوميًا من استعمال الكحل فاردتُ ان انشر هذه الرسالة لا طمعًا بان تسمع المتكحلات المزمنات لقولي ويتقيّدنَ بهِ ولكن لكي انبه اللواتي يتكحلنَ من عهد حديث او اللواتي لم يتعوّدن الى الآن على الكحل فيرتدعنَ عن اتخاذهِ. ولعلَّ هذه الرسالة تهيّج عليَّ غضب المتكحلات المزمنات ولكن استمرارهنَّ على استعمال الكحل بعد هذه المقالة يأخذ ثارنا منهنَّ. فالامل منهنّ عند ما ينظرنَ وجوههنَّ بالمرآة ان يتأملنَ في عيونهنَّ ويعرفنَ صدق مقالنا

المعالجة الادبية

ان عادة التكحّل قد دخلت في هذه السنين الاخيرة عند المتمدنات في بلادنا وعند النساء العاقلات ظنًا منهنَّ انها لا تضرّ وتزيد الهيئة جمالًا. فعبثًا نحاول ازالة هذه العادة برسالة كهذه لاننا اوّل من كتب عنها ولا رجاء لنا ان نبطل هذه العادة عند مَن يألفها وإنَّما غايتنا رَدْع من اراد ان يعتادها في المستقبل وخصوصًا البنات الخارجات من المدارس. وأرى ان المعلمات في المدارس يجب عليهنّ ان يظهرن للتلميذات اضرار هذه العادة ويعطين دروسًا بالاملاء عليها وعلى اضرارها حتى تأنف التلميذات منها. فكما انَّ غاية المدارس هي حفظ الآداب والاديان كذلك يقتضي انْ يتعلم التلامذة البعد عن اضرار الجسم والعقل والصحة فكما يوصيهم الاستاذ بتحاشي ضرر القريب كذلك يلزم ردعهم عن ضرر ذاتهم. وعلى المعلّمة ان تبيّن للبنات اضرار زينة العين والوجه وليوضع صور في المدرسة للمصابين باضرار الكحل كما يلزم فعل ذلك في مدارس الصبيان لكف من تعوّدوا شرب الدخان والمسكرات فيفهمون اضرارها سواء كان بالعقل او بالصحة او المال. فهذا ضروري جدًّا

وسأبين ان شاء الله في كتاب اسميه « امراض التمدن » جميع هذه الاضرار الناتجة من الدخن والمسكرات وزينة الوجه والفساد ولعب القمار واضرارها الصحيَّة والعقلية والمالية والأدبيَّة لان هذه الامراض مضرَّة جدًّا وليس من قانون لمنعها ولا مبشر بمضارّها لانّ الاباحة سهَّلت لفاعليها الاكثار من استعمالها. وليس لها مانع الَّا العقل والعقل لا يقوى على العادة

وربَّما رأيت عقلاء يعرفون هذه الاضرار جيدًا كالاطباء مثلًا ومع ذلك تغلب العادة عليهم وإدراكهم باضرارها فانظر يا صاح كم هي قوية هذه العادات حتى تغلب العقل وتعمي الانسان عن صالحه فكم يلزم من الملاحظة من الاهل والمعلّمين والمعلّمات لمنع هذه العادة عند هؤلاء الصغار الذين سلمتهم ايامهم اليد الزمانيَّة. ولا يكفي في الابتداء وعظهم بالعقل فقط لانهُ لا عقل لهولاء الاطفال حتى يدركوا الاضرار المستقبلة غير المحسوسة بل يلزم القوَّة والقصاص لمنعهم واذا كبروا فليعاملوا بالعقل الذي تساعدهُ القوَّة المستعملة قبلًا والتربية الاولى فينبذون هذه العوائد الذميمة ولولا ذلك لما فعل العقل شيئًا ما لم تحلّ نعمة خصوصية قويَّة جدًّا من السماء فتحمل الانسان على ترك عوائدهِ. وقد اقتصرتُ في مقالتي هذه على ذكر الاضرار التي تحصل من كحل العين لانني اشاهدها يوميًا راجيًا بان تنتبه السيدات ويمنع الآباء والامهات بناتهم عنهُ وحتى تعرف الابنة الى اين مصيرها بعد هذه العادة. وارجوها ان تطلب من والدتها المتعودة على الكحل ان تريها نفسها عند الصباح بعد قيامها من النوم فترى تلك العيون المسلخة المحمرَّة الدمعة والحكَّة (الرعيان) المستترة بها والشعر الضعيف الذليل كأنهُ محروق متقصّف واذا كان باقيًا اثر تكحلة السابقة ترى حول الشعر موادّ لخميَّة كعيون الوقّادين في البواخر. واذا حلَّ لون الكحل بسبب التدمع على خدَّيها فترى ميازيب موادّ قذرة. وربما كلَّفتكِ ايتها الابنة والدتكِ ان تقتلعي ما يحرق عينها وبسبب لها الحكَّة فتجدين في باطن جفنها السفلي خيوطًا مسودَّة مستترة في هذا الميزاب بين الجفن والعين التي تتهيَّج من احتكاكها ببقايا الكحل كأنهُ رمل او غبار متلبّد داخل العين وخصوصًا اذا كانت زينة والدتك ليست مقتصرة على العين فقط فتزين الوجه والحواجب والاسنان بحالة افضل منها سنّ الثلاثين. فتأمَّلي ايتها الابنة النضرة الصباء واتعظي واكتفي بما اعطاكِ الله من الهيئة الطبيعية والصحة والعقل لان كل عمل غير عمله مضرّ بصاحبه واطلبي من الله ان يرجع عقل والدتك لها ويريحها من كلّ ذلك وان لا يدخلك في التجارب بل ينجيك من التكحيل

آثار قديمة للنصرانيَّة في غزَّة وضواحيها

للاب الدكتور لويس موصيل

قد رحل الدكتور لويس موصيل تريل كلَّيتنا حالًا الى غزَّة وتفقَّد مرارًا آثارها وزار ما يجاورها من البنايات والاخربة القديمة فتمكَّن بذلك ان يكتشف على عدَّة امكنة ذُكرت في التوراة والتواريخ القديمة وتراجم اولياء الله لم يقف قبلهُ على حقيقة بعضها احدٌ من المستشرقين. فعرض علينا نتيجة ابحاثهِ لننشرها في مجلتنا فلبَّينا بكلّ طيب خاطر الى سؤلهِ بتنسيق مقالتهِ وهي كلُّها فوائد ل. ش.

لا يجهل احد ممَّن لهم ادنى إلمام بالتواريخ الكنسيَّة انَّ دين المسيح انتشر في فلسطين منذ بدء النصرانيَّة. وقد جاء في اعمال الرسل(١ ما يشهد على ذلك شهادة صريحة فترى تلامذة المسيح يتجوَّلون في انحاء تلك البلاد يدعون الناس الى الايمان وانَّ كثيرين اذعنوا الى دعوتهم. الَّا انَّ انتشار النصرانيَّة كان في ضواحي المدن وارباض البلاد اكثر منهُ في نفس المدن لما كان في السكَّان من التعصُّب للوثنية لاسيَّما مدينة غزَّة وفيها كانت سائدة عبادة الاله مَرْناس يحجُّون الى هيكلهِ من الاقطار المجاورة. واورد صاحب كتاب التاريخ الفصحيّ (٢ انَّ فيلمون الذي وجَّه اليهِ بولس الرسول رسالتهُ كان اسقفًا على غزَّة

وذكر اوسابيوس القيصريّ في تاريخهِ (٣ : انَّ ساوانس اسقف ضواحي غزَّة (τῶν ἀμφὶ τὴν Γάζαν ἐκκλησιῶν) استشهد في عهد ديوقلسيان وكان هذا الملك نفاهُ اوَّلًا الى وادي العَرَبة وحكم عليهِ بتعدين معادن النحاس التي كانت هنالك ولم يلبث ان امر بقطع رأسهِ. ووادي العربة يمتدّ من بحيرة لوط الى خليج عقبة. وامَّا موقع معادن النحاس فكان في جوار فَينوم (Phœnum). وهي مدينة اسعدنا الحظّ بان نقف على آثارها (٤ تُعرف اليوم باسم خربة فينان اكتشفنا رسومها في ١٠ ايلول سنة ١٨٩٦ وكنَّا اذ ذاك

---

١) اعمال ٨ :٢٦ , ٤٠ و٩ :٤٢ , ٤٣

٢) Chronicon Paschale, II, 128

٣) (Euseb., Hist. Eccl. VIII, 22, 25)

٤) راجع البشير في تاريخ ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٩٧

نازلين في قرية ضانة (١ ولما عدنا ثانيةً في سنة ١٨٩٧ الى تلك الاصقاع نادين ان نتّبع طريق الاسرائيليين في البرّية من جبل حلاق (ההר החלק) المذكور في سفر يشوع بالنصّ العبراني (١١: ١٧و١٢: ٧)(٢ وجدنا انّ فينان السابق ذكرها هي فُونَن (פונן) التي وردت في سفر العدد (٣٣: ٤٢) ولا تبعد عن محلّ آخر ذُكر في السفر ذاته (٢١: ١١) دعاه الكتاب عَيي (עיי) ويُعرف اليوم بخربة عيّ. وسنعود ان شاء الله عمّا قريب الى هذه الامكنة لنجمع ما امكنّا من اخبارها ورسومها

وصدق في موت القديس سلوانس ما كتبهُ ترتليانوس انّ دم الشهداء يصبح زرعاً لنموّ النصرانيَّة. فاخذت الديانة المسيحيَّة بعدهُ بقليل تتأصّل في غزّة وكادت الاضطهادات اذ ذاك تمحو آثارها منها. واسم خَلَف سلوانس على كرسيّ غزّة أسكلبياس. حضر هذا الاسقف المجمع النيقاوي ودافع عن الايمان ضدّ اريوس واشياعهِ فنقموا عليهِ ونفوهُ من كرسيهِ فبقي منفيّاً الى زمن مُجتمع سَرديس حيث قضى الآباء باعادتهِ الى رعيَّتهِ. ومن آثارهِ كنيسةٌ بناها في غزّة للمؤمنين. ولعلّها اوّل كنيسةٍ شُيّدت في نفس المدينة وكان المسيحيون قبلها يجتمعون في ربض المدينة خوفاً من المشركين

وقد اشتهر في غزّة باواخر القرن الرابع وغُرّة الخامس القديس بُرفيريوس اسقفها. وفي ايامهِ انتصرت النصرانيَّة على عبَدَة الاوثان. فانّ هذا الشهم لم يزل يجدّ ويسعى حتّى سمح لهُ اركاديوس الملك ابن تاودوسيوس الكبير بان يخرب هيكل صنم مَرناس وسبعة معابد أُخر كانت كلُّها عثرةً لاهل البلد ولسكّان فلسطين يجترح فيها الوثنيُّون اصناف المنكَر. وشيّد القديس في مكان هيكل مرناس بيعةً كبيرة تُعدّ من البنايات العجيبة وكانت الملكة اودوكسية انفقت عليها الاموال الطائلة فدُعيت باسمها. ومكانها اليوم الجامع الكبير (٣. وكانت وفاة برفيريوس سنة ٤١٩ وقيل ٤٢٠ (٤

ومن مشاهير رجال غزّة الاسقف مرقيانوس تولّى رعاية المسيحيين سنة ٥٣٦. وكان اخوهُ والياً على البلدة شيّد فيها البنايات الحسنة من جملتها حمّامات ومشاهد وحصّن المدينة

---

١) وسمّيت سهواً «Thana» في مجلّة الكتب المقدَّسة (Revue Biblique VII, 113)

٢) وفي ترجمة الآباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت ترجم هذا الاسم بالجبل الاملس

٣) Patrol. Græc. LXV, Marci diaconi, Vita S. Porphyrii

٤) Le Quien, *Oriens Christianus*, III, 610

بسور. وغمّهما هو برُوكوب الغزّي من فصحاء الكتّاب وردت تآليفهُ في مجموع اعمال آباء اليونان (١. امّا الاسقف مرقيانوس فانّهُ جدّ في تعزيز الدين النصرانيّ في غزّة وبعنايتهِ بُنيت عدّة كنائس منها واحدة كبيرة على اسم القديس الشهيد اسطفانوس كانت محكمة البناء واسعة الارجاء. شيّدها بقرب الاسوار عند الباب الشرقي في موضع مرتفع ويخال لنا انّ هذا المكان انّما هو قلّة صغيرة على شمال الداخل في المدينة بازاء الجامع المعروف اليوم بجامع شمشون. وما يزيد رأينا في موقع هذه الكنيسة ان فُسَيفساء مادباء المكتشفة حديثًا وفيها رسوم بلاد فلسطين تمثّل بناءً جميلًا عند المحلّ المذكور ليس هو سوى هذه الكنيسة. والفسيفساء الآنف ذكرها رُسمت بعد اواسط القرن السادس كما اثبت العلماء (٢. وممّا رُسم فيها صورة دير القديس سَرِيدون موقعهُ في غربيّ المدينة وهو مذكور في التاريخ (٣

وفي ايّام الاسقف مرقيانوس نبغ في غزّة شاعر نصرانيّ اسمهُ إينياس الغزّي لهُ قصائد حسنة في شرح العقائد الدينية وردت في مجموع اعمال الآباء اليونان (٤

واذا خرجنا من غزّة وسرنا خمسة اميال نحو الجنوب الغربي عثرنا على اخربة قرية يغطّيها الرمل ويدعوها اهل تلك الانحاء خربة أمّ التوت موقعها عند وادي غزّة على ضفة النهر القبليّة. وليست هذه القرية سوى تَبَتَة القديمة (Θαβαθα) وطن القديس هيلاريون الناسك الشهير (٥

واذا اعتبرنا اسم تَبَتَة وجدنا انّ تركيبها لا يختلف عن لفظ امّ التُّوت كثيرًا لان الباء من الاحرف اللّيّنة في اليونانيّة تكاد تلفظ واوًا. ولنا شاهد على قولنا ما جاء في رسم فسيفساء كنيسة مادباء حيث تسمّى هذه القرية تَوَتَة (Θαυαθα) بالواو وفي

١) Migne, Patrol. Græc. vol. 85 – 87

٢) P. Lagrange, *Revue biblique*, VI, n° 3

٣) Patrol. Gr. XCIII, col. 1647

٤) Patrol. Græc. LXXXV

٥) راجع سيرة القدّيس هيلاريون للقديس هيرونيموس (Patr. Lat. XX, 31) وتاريخ الكنيسة لسوزمين (Sozomenus H. E. III, 13) . وقد دعاها بعض الكتّاب الاقدمين (تَنَتَة Thanatha)

بعض نسخ اعمال القديس هيرونيموس المحفوظة في دير القديس فلوريان كتبت بالواو الساكنة تَوْتَة (Thautha). وقد ورد اسمها ايضاً في السريانية في اعمال بطرس الايبريّ اسقف مَيُومة (المينة) المكتشفة حديثاً فيدعوها بجدل توتا ܡܓܕܠ ܬܘܬܐ (١

فلا يبقى بعد هذا ادنى ريب في الموافقة بين تَبْتة وامّ التوت الحالية. وفيها كما سبق كان مولد القديس هيلاريون ودرس هذا السائح في الاسكندريّة ثمّ رحل الى الصعيد يزور القديس انطونيوس ابي الرهبان ولمّا عاد الى وطنهِ وزّع امواله على الفقراء وسار الى البريّة الى مكان قفر يبعد عن مسقط رأسهِ عشرين غلوةً موقعهُ بين البحر والمستنقعات بينهُ وبين ميومة سبعة اميال على شمال طريق مصر البحري(٢. فانفرد هناك الى الزهد والعبادة الى ان اكتشف عليهِ بعض اللصوص فشاع اسمهُ في تلك الانحاء. وعمل المعجزات العديدة فاتاه كثير من السكّان يطلبون اليهِ ان يرشدهم في سبل الخلاص. فابتنى لهم ديرًا كبيرًا وهو اوّل دير شُيّد في فلسطين. امّا اسم هذا الدير فما هو على ما نرى سوى دير البَلَح(٣ الذي موقعهُ في مكان يبعد ثلاثة ارباع الساعة من امّ التوت ونحو ساعتين وربع عن ميومة وبينهُ وبين البحر ميل ونصف وبقربهِ مستنقعات واسعة. وهناك آثار كبيرة لأبنية ضخمة استولى عليها الخراب يُرى بينها اعمدة من الرخام وكتابات اخذنا صورتها. وحول هذه الاخربة ضيعة صغيرة

وكانت الجموع تتقاطرَ الى دير القديس هيلاريون وكان وليّ الله يرشدهم ويشفي مرضاهم وصبغ بماء المعموديّة كثيرين من عبدة الاصنام. ويُخبر عنهُ انهُ اتاهُ رجل من

---

١) Petrus der Iberier, *ed. Raabe* p. 37 — راجع ايضاً كتاب كلرمون غانو Clermont – Ganneau, Archæological Researches in Palestine, p. 436

٢) Hier., l. . c. — Sozomen.. l, c.

٣) قد ظنّ العلّامة كلرمون غانو (Glermont-Ganneau l. c., p. 130) ان تَوْتة مولد القديس هيلاريون هي القرية المعروفة اليوم بتلّ العجول وانّ ديرهُ هو المكان المسمى شيخ الشوبانيّ. وهذا لا يوافق ما قالهُ الاقدمون انّ الدير يبعد سبعة اميال من ميومة وليس هناك بريّة ومستنقعات كما ذكروا — وقد زعم العلّامة ڤيكتور غيرين ان موقع تبتة هذه في محلّ آخر من جهة الجنوب الشرقي من الوادي يدعى خربة اتناوي بقربهِ بئر يسمى بئر اتناوي. هذا واننّا لم نقف هناك على مكان بهذا الاسم ولم نجد احدًا يرشدنا اليهِ

سائق الخيل اسمهُ يليانوس والتمس اليهِ ان يبارك خيلهُ لتفوز بسباقٍ كان دُعي اليهِ في مدينة غزَّة فاجاب القديس الى سولهِ واوصاهُ ان يتَّخذ لهُ شعارًا وقت السباق اسم المسيح ووعده بالفوز والانتصار · ففعل الرجل ونال قصبة السبق · وكان لهذا الامر سُمعة كبيرة في كل النواحي المجاورة وانتشر لذلك الدين المسيحي انتشارًا عجيبًا

ولمّا ملك يوليانوس الجاحد واخذ يضطهد النصرانية اضطرَّ القديس هيلاريون ان يهجر الى قبرس وتوفي في هذه الجزيرة في السنة الثمانين من عمرهِ (٣٨٦ م) ونقل جسمهُ تلميذهُ هيزيكيوس الى ميومة ثمَّ دفنهُ في دير البلح باكرام · وكان قبرهُ مُزارًا يتوارد اليه النصارى ليتبرَّكوا بهِ · ولا يزال حتى اليوم اثر لهذا الاكرام فترى اهل القرى المجاورة يعظّمون دير البلح ويزوردونهُ · وللروم اسقف يدعى اسقف دير البلح يسكن في القدس

وكان للقديس هيلاريون تلامذة كثيرون نُظمت اسماؤهم في سلك القديسين(١ وقد اشتهر منهم اوريليوس من أنتيدون · وانتيدون هذه لها بقايا في شمال مَيُومة (المينة) على مسافة ميلٍ منها تدعى اليوم تَلَلاخيّة

ومنهم ألافيون من أزالية · ولعلَّ أزالية هي نفس خربة الإثل وهي تبعد ساعتين عن غزَّة · وقد ظنَّ البعض انَّ أزالية هذه هي دير العَسَل لكنَّ دير العسل بعيد جدًّا لا ينطبق عليهِ محلُّها في رسم فسيفساء مادباء المذكورة

ومنهم أَلِكسيون من بيت أجوتا (Βαιθαγουθα) · وليست هذه غير خربة النَّجوة على ضفَّة وادي مَرْطبة

ومنهم أُمونيوس من كَفَرَكُبرا (Χαφαρχοβρα) وهي اليوم كُوفيرة موقعها نحو سبع ساعات في الجنوب عند سيل الشلالة

وقد كان في اواسط القرن الخامس صدًى في فلسطين لتعاليم اوطيخا واشياعهِ اليعاقبة فاشتهر من جملتهم بطرس الامير الايبري والاسقف المونوفيزيتي · وكان يسكن في دير بين ميُومة وغزَّة · ويغلب على ظنّنا ان آثارهُ هي الاخربة الشائعة اليوم باسم الكنيسة · وموقع هذه الرسوم تبعد سبع دقائق عن سور مَيومة الجنوبي وعشر دقائق عن بساتين غزَّة (٢

١) راجع تاريخ سوزومين (Sozomenus, Hist. Eccl. VI, 31, 32)

٢) Petrus der Iberier, *ed. Raabe*, 40, 50, 54; Nicephorus XV, 16

وفي زمان بطرس الايبريّ شاع اسم القديس فيكتور في جوار غزّة (١ ولا يبعد ان ذخائر هذا الشهيد كانت نُقلت الى موضع يعرف في وقتنا بخربة الناصرة وهو على مسافة عشرين دقيقة من غزّة في جنوبها الغربي . وموقعها الآن موافق لرسم الفسيفساء المكتشفة في مادبا.

وفي القرن السادس توفّرت نحوَ النصارى المقاماتُ الاسقفيّة في ظهرانَيْ غزّة فنجد ما عدا مَيُومة (المينة) وأنثيدون اعني لَبلاخيّة المدعوّة ايضاً تيدو (٢ كراسيَّ أُخر منها مَدَيين المسمّاة ايضاً مَنُويس ونرتأي انها هي خربة ابي مدّان في وادي غزّة غربي جنوبي امّ زرار. ومنها اسقفيّة سِيكومازون (Συκομάζων)(٣ . وهي غير سيكامينون المذكورة في تاريخ يوسيفوس(٤ كما بيّن ذلك الكاتب ريلَند (٥ . امّا فسيفساء مادبا. فعيّنت موقعها الصحيح وهي اليوم الخربة المعروفة بسوق مازن في جهة الشرق بقرب قرية بني سحيلة

وبقيت احوال النصرانيّة في نمو وازدياد الى ظهور الاسلام . وكان يسكن وتنتشر في جنوبي غزّة قوم من قبائل العرب المتنصّرين وكان اصابهم من قبل ولاة الروم عَنف وجور في المعاملات . فالتجأوا الى عساكر المسلمين ودعوهم الى فلسطين فلبّوا الى دعوتهم وزحفوا على غزّة في ٤ شباط من سنة ٦٣٤ وظفروا بجيش الروم وفتحوا المدينة وبعد ايّام قليلة اتمّوا فتح بقيّة مدن فلسطين (٦ . فسبحان من يعطي السلطان من يشاء وينزعهُ ممّن يشاء. ولهُ وحدهُ الملك الدائم والبقاء.

(١ Petrus der Iberier, l. c.

(٢ Don Gatt, ZDPV, VII, 5 et 6

(٣ Tobler, Itin. Hieros. II, 331

(٤ Josephus Fl., Antiq. XIII, 29

(٥ Relandus, *Palestina*, I, 212

(٦ Theophanes, *Chronogr.*, ed. Migne, c. VIII col. 689 – Th. Nöldecke, Die Ghassanischen Fürsten, p. 45. – راجع ايضاً الصفحة ١٠٩ من كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ed. de Goeje,)

فن الملاحة في الشرق

للاب فكتور دي كوپيه اليسوعي

انَّ للملاحة بين جميع الاكتشافات التي وقف عليها البشر مقامًا رفيعًا. فهي تنطق بلسان حالها عن جُرأة المرء وحزمهِ اذ ركب ثبج البحور وذلَّل تيَّار المياه وجعل غمرها طريقة يسير فيها فينتهي الى اقاصي البلاد بوقت قريب وينال من خيراتها ويتعاطى مع شعوبها

وتاريخ الملاحة واخبار اربابها تقتضي صفحات مطوَّلة بل مجلَّدات ضخمة الَّا انّنا سنكتفي في هذه النبذة الوجيزة بذكر مبادئ هذا الفنّ الجليل في الاعصار الاولى وترقّيهِ في مدارج التقدم فانَّ شرح ما استهلَّ بهِ لمن شأنهِ ان يبيّن لنا ما فازهُ في عصرنا من التحسين والكمال

لا ريبَ ان الملاحة كبقيَّة الصنائع والحرف انَّما اصلها من الشرق. ولكن لا يتيسَّر لنا ان نعيّن الزمن الذي بهِ وُجد هذا الفنّ وانتشر بين الشعوب كما انّنا لا نعلم اسم البلد الذي فيهِ ظهر اوّلًا والملّاحين ذوي البأس والمروءة الذين خاطروا بحياتهم في بادئ الامر فركبوا الاخشاب الاولى الطافئة فوق المياه وحلّوا ببلادٍ كانوا يجهلون اسمها واحوالها

وقد ذهب القدماء في اصل الملاحة مذاهب شتَّى. ورد في الفقرات الباقية من تاريخ سَنْكُنْيَتُون الفينيقي الذي عاش قبل المسيح بزمن طويل انَّ اكتشاف فنّ الملاحة كان على سبيل الاتفاق والصدفة وذلك انَّ قومًا من الفينيقيين كانوا يقطنون في سواحل سوريَّة في غابات واسعة الارجاء. فضربت صاعقةٌ رؤوس اشجارها فاتَّقدت وامتدَّ لسان اللهيب الى ان التهم كل اشجار الغابة. فلمَّا لم يرَ اهل تلك الضواحي نجاةً من النار قطعوا من اخشاب الغابة المحرقة ما امكنهم فالقوها في البحر واعتلوا متنها فساروا في مجاهل اليمّ وكان قائدهم أُوزُووُس (Osoüs)

قال سَنْكُنْيَتُون ثم سعى الملّاحون بعد ذلك بتحسين هذا القارب الاوَّل وكان القائم بهذا العمل كرِيزُور (Chrysor) الذي اشتهر بعدئذٍ باسم الاله فُلكان (Vulcain)

وقيل ان اوَّل مكتشف لفنّ الملاحة المصريُّون اتَّخذوا لهم زوارق من نبات البَرْديّ لينجوا من النيل في ابَّان فيضانهِ السنوي. وهذه صورة قارب من قصب البردي رُسمت رسمًا تامًّا على بعض آثار قدماء المصريين المحفوظة في متحف اللوڤر في باريس



سفينة مصرية قديمة من نبات البَرْدي

هذا الى مزاعم اخرى ليس في تعدادها كبير امر. وعلى رأينا انّ هذا الفنّ سبق عهد الطوفان العرمرميّ اكتشفهُ سكّان السواحل وضفّات الانهار. وذلك انهم يكونون شاهدوا بعض الاجسام تطفو على وجه المياه وتتلاعب بها الامواج او يدفعها سير الانهار فنبّه ذلك افكارهم فاتّخذوا الخشب او ما قام مقامهُ كالظروف المنفوخة وضمّوها الى بعضها. ثمَّ جعلوا ينتقلون شيئاً فشيئاً من بلادهم الى بلاد اخرى قريبة الى ان احكموا هذا الفنّ وحسّنوا مراكبهم بالاختبار اليوميّ. وقد جاء في رسوم خُرساباذ السابقة لعهد المسيح بنحو خمسة عشر قرناً شكل الأطواف (الكلكات) التي كانت تسير على نهري الفرات ودجلة فهي لا تكاد تختلف عن الاطواف التي لا يزال يستعملها عَرَب الجزيرة والعراق الى يومنا هذا

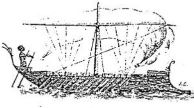
وعلى كل حال ما من أحد ينكر انّ سفينة نوح كانت من احكم واتقن ما جاء من هذا القبيل وانّها سبقت كل ما ذكرهُ القدماء عن اكتشاف فنّ الملاحة. ولعلّ نوحاً نفسهُ انتفع ممّا شاهدهُ قبلهُ من المراكب البحريّة في عمل تابوتهِ لينجو من غمر مياه الطوفان وان كان في صنعهِ قد امتثل تماماً لاحكام الربّ فنظّم كلّ اقسامهِ على مقتضى اوامرهِ تعالى ولمّا خرج نوح واولادهُ من التابوت لم يكونوا لينسوا هذه السفينة فاتّخذوها مثالاً لسفن اخرى ركبوها لقضاء اوطارهم كالصيد والاسفار

ولا غرو انّ الفينيقيين انكبّوا على فنّ الملاحة وسعَوا في تحسين ادواتهِ. وجهّزوا قواربهم بالسكّان (الدفّة) والمقاذيف والقلوع. وفي نبوّة يعقوب قبل وفاتهِ ما يصرّح عن ذكر سفن الفينيقيين ومرافئها (تكوين ٤٩: ١٣). وجاء في الرسائل المكتشفة في تل

امرنة ذكر السفن التي عمَّرها اهل جبيل والبترون وبيروت وصور وصيدا لخدمة فراعنة مصر وذلك قبل المسيح بخمسة عشر قرنًا

امَّا العبرانيُّون فما كادوا يدخلون ارض الميعاد حتى اتَّخذوا لهم سفنًا على مثال الكنعانيين. وقد ورد في سفر القضاة (٥: ١٧) ذكر سفن قبيلة دان

ولا مراء انَّهُ بتقدُّم الاعصار اصاب ايضًا فنّ الملاحة نصيبهُ من التحسُّن والنجاح. وهاك ما رواهُ هوميرس الشاعر في وصف السفينة التي اتَّخذها عوليس رغبةً في النجاة من مكايد كاليسو قال: «ان عوليس شرع بقطع عشرين من عظام الشجر ثمَّ نشرها بتربيع اطرافها ثمَّ سوَّى سطحها وثقبها بمخرز وضمَّ الالواح الى بعضها بزوئب ورتاقات. ثمَّ جعل في عرضها اخشابًا وسطحها بالالواح ووضع في اطرافها قوائم مرتفعة تحدق بها وتصون وسطها من الماء»



مركب يوناني قديم

ولا جرم انَّ الفينيقيين افرغوا الوسع في احكام عمارة السفن وقد نرى مراكبهم قبل عصرنا بثلاثة آلاف سنة تتجوَّل في البحر المتوسط وتسير الى البحر الاسود وتنتهي الى بحر القلزم وبحر الهند وبحر فارس لتستجلب منها العقاقير وتشحن المعادن وكلَّ محصولات تلك البلاد السحيقة. وكانوا جعلوا لهم مستعمرات في اقطار شتَّى او على الاقلّ اتَّخذوا لهم فيها محطَّات يقدمون عليها سنويًّا لتجارتهم

وكانت الدول الكبيرة كالاشوريين والمصريين يستعملون الفينيقيين في سبيل صوالحهم ليخوضوا البحار ويحاربوا من عاداهم من الشعوب الساحلية. فترى مثلًا فراعنة

الدولة الثامنة عشرة كرتمس الثالث ورعمسيس الثاني (سيسوستريس) يملكون عمارةً كبيرة يركبها لشؤونهم ملّاحون فينيقيّون. وكان في ذلك اصور وصيدا القدم الاعلى. وكانت سفن سليمان تسير مع سفنهم فتجلب لهُ من ترشيش وغيرها من جزائر البحر اصناف المعادن وغرائب المخلوقات كالطواويس والقردة (سفر الملوك الثالث ١٠: ٢٢)

فاتساع تجارة الفينيقيين واسفارهم البعيدة الى اقاصي المعمور كانت تستلزم سفناً تجمع بين المتانة والاتقان. وكانوا في اوّل امرهم لا يسيرون الّا نهاراً قرب السواحل لانهم لم يعرفوا البلاد ولم يدركوا في الليل نواميس الكواكب. وكانوا يجعلون قعر السفينة مسطحاً ليتمكنوا بذلك ان يسحبوها في كلّ مساء الى شاطئ البحر اذا ما خافوا القرصان او ارادوا اصلاحها. فلمّا ألفوا البحار شرعوا يخوضون في مياهها وفي الليل يرقبون النجوم لسيرهم

ثمّ بعد ذلك بمدّة جعلوا سفن التجارة حربيّة بالحرب بان زادوا في مقدَّمها كُلّابة او شوكة من حديد لثقب مراكب العدوّ وبنوا مقاماً للجنود فوق سطح السفينة. ولم يزالوا بعدئذٍ في تحسين هذه السفن ونقشها حتى صارت من البدائع. واخبر هيرودوت انَّ السفينة التي كان يركبها رعمسيس السابق ذكرهُ كانت مطليَّة في خارجها بالذهب وفي داخلها بالفضة

ويشهد حزقيال النبي على ما اتّصل اليه الفينيقيون لاسيا مدينتي صور وصيداء من البراعة في فنّ التجارة فانّهُ يصف تجارتهم مع كلّ ممالك الارض بكلام بارع يُعدّ من اعلى طبقة الشعر (راجع الفصول ٢٦ و٢٧ و٢٨)

ومن شهادات التاريخ للملّاحي فينيقيّة ما رواهُ هيرودوت المؤرّخ (ك ٧ عدد ٤٤) عن الملك ارتحشستا (كزركسيس) انَّهُ جمع لمحاربة اليونان نيِّف و ١٢٠٠ سفينةٍ من كل سواحل البحر المتوسط واراد اختبار حذاقة بحّاريها فكانت الغلبة في سباقٍ جرى امامهُ لفينيقيّي صيداء فلم يَركب بعدئذٍ الّا سفنهم

وينسب لليونان اختراع السُّفن ذات الصفَّين وذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف (birème, trirème) وزيدَ في عدد هذه الصفوف الى العشرة والعشرين صفّاً الى الاربعين

وذكر المؤرّخ أُبلي انَّ ملك صقلّية هيرون تقدّم الى ارشميد المهندس الشهير بان

يصنع له سفينة لا مثيل لها في الكبر والإتقان فقام ارشميد بامر الملك واستخدم لانجاز العمل مئات من النجّارين مع عملتهم فتمّ هذا المشروع بعد سنة وتأنّق فيهِ الى الغاية. قيل أنهُ دخل في بناء هذا المركب من الخشب ما كان كافيًا لستّين سفينة. وكان منقسمًا الى ثلاثة اقسام: فكان القسم الاسفل لشحن البضائع وبنى في القسم الاوسط ثلاثين حجرة في كلّ منها اربعة فُرُش. واما القسم الاعلى فكان مفروشًا بالفسيفساء يعلوهُ مرقبٌ يحفّ بهِ شُجيرات متنوّعة وزهور بديعة وفي صدرهِ قاعةٌ للسيدات مفروشة بالحجارة الكريمة. وكانت الجدران مرصّعة بنقوش من العاج والفضّة والاصداف. وكان فيهِ مقام لفِرَقٍ من الجند تحميهم الأدوات الحربيّة كالدبّابات والمنجنيقات. ولكبر مساحتهِ عجزت مرافئ صِقلّية مع سعتها عن احتوائهِ. فاهداهُ ملك صقلّية الى فرعون مصر

وكان لبطليموس المحبّ ابيهِ سفينةٌ تباري مركب هيرون عظمًا وجمالًا. اخبر أُبولي وبلوترخُس انّ طولها كان يبلغ ٤٢٠ قدمًا وعرضها ستين. وكان لها اربعون صفًّا من المجاذيف تدفعها في البحر. وكانت المقاذيف مذهّبة طولها ٧٢ قدمًا رُكّب الرصاص في قبضتها تيسيرًا لحركة. وكان في مقدّم السفينة ثلاث حراب لثقب سفن العدوّ. وفي سطح البروج المشيّدة فيها كان يسكن الفان من الجنود. وجعل الملك لنفسهِ في صدر السفينة عرشًا بهيًا تحدق بهِ روضة تصدح فيها غرائب الطيور. امّا الشروع فكانت من الارجوان.

هذا وانّ البوارج الحربية في ايّامنا مع رحبها وسعتها لم تكن لتبلغ الّا نادرًا هذه القياسات

وقد فاقت السفينتين السابق ذكرهما بارجةُ الملكة كلاوبترة في مُعترَك أكسيوم لمّا حاربها اوكتاف (اوغسطوس الملك). قيل انّ مقاذيفها كانت من خشب الارز المنقوش مثبتةً في محامل من الفضّة المصمتة. لكنّ هذه السفينة مع حسنها تشوّهت بانهزام كلاوبترة وكسرة جنودها فصدق فيها قول سينيكا الفيلسوف: « ليست قوّة السفن بالمقاذيف المذهّبة وحِراب من الابريز وانّما النحاس افضل لوقائع الحرب »

وكان النحاس يدخل في كثير من ادوات السفن يجلبهُ الفينيقيون بحرًا من ضواحي اسبانية وسواحل بريطانية. ولو كانوا اتخذوا الفولاذ لكان خيرًا لهم الّا انّهم لم يحسنوا وتتنذر صُنعهُ. وكان النحاس في اغلب المواقع يفي بحاجتهم وتشقّ صدماتهُ سُفن

العدوّ فتثرقها اللهمَّ الّا اذا كانت صَفحة الاخشاب مصفّحة بصفائح الحديد فكانت لا تعمل فيها حراب النحاس وربّما اتّرت هذه دون جدوى

والمتحركات البحريَّة القديمة لم تشبه المعارك التي جرت عادتها بعدئذٍ فلم يحاولوا الحملة على سفن العدوّ بهجوم الجنـد عليها بل كانت غايتهم ان يشقّوا جوانبها فتدخلها المياهُ وتغمرها. ولم يكن في هذه الوقائع محلٌّ للأشرعة لقلّة منافعها ولمّا رأى اوغسطوس قيصر خصمَهُ انطوان في واقعة أكسيوم ناشرًا قلوعهُ فهم انهُ يُعدُّ نفسهُ للفرار كما اجرى ذلك فعلًا

الّا ان مشاهير امراء البحر كانوا في بعض الاحوال يستخدمون الشُّرُع بمصاحبة المقاذيف تخفيفًا لحركات البوارج كما فعل تيمستوكل الشهير في موقعة سلامين فبدّد شمل سفن الفرس وفاز عليهم بانتصار جليل

وافضل السُّفن الحربيَّة كانت مستطيلة الشكل خفيفة الادوات يعلوها بروجٌ مشحونة بالجند والرُّماة. وربّما كانوا يحملون فيها الاكباش والعرّادات لقذف العدوّ بالحجارة

ومن المراكب القديمة ما كانوا يتّخذونها للدين واكرام الهتهم او سفر كهنتهم. وقد اشتهر في الشرق من هذه السفن المقدَّسة سفينة للمصريين تُدعى سفينة باري. وكان اكرامهم لها عظيمًا جدًّا حتّى انّهم كانوا يعدّون كاكبر اهانةٍ لهم الدُّعاء عليها بالغرق

امَّا اليونان فكانوا اتّخذوا لديهم سفينةً عجيبة الصُّنع غريبة الإحكام يدعونها ديلي لأنهم كانوا كلَّ سنةٍ يرسلون عليها التقادم والهدايا النفيسة الى هيكل ابولّون في جزيرة ديلوس. ولم يحلّ لهم في مدّة سفرها ان يعدموا المجرمين. ومن جرّاء ذلك لم ينفذوا الحكم في سقراط الفيلسوف بعد ان حُكم عليه بشرب السمّ الى ان عادت السفينة المقدّسة الى اثينة

هذه نبذةٌ وجيزة في فنّ الملاحة القديمة. وهي كافية ليرى قرّاؤنا الكرام انَّ للشّرق ولاسيّما لبلاد فينيقية فضلًا ساميًا في هذه الصناعة الخطيرة. فعسى ان ينبّه ذلك افكار الشرقيين ويحملهم على مجاراة الاجانب في عصرنا فينالوا من الفخر فيها ما احرزهُ آباؤنا الاماجد

كتاب تاريخ بيروت

(تابع لما قبل)

فصل في ذكر فتوح بيروت ثانياً

وصل السلطان الى ظاهر بيروت نهار الاربعاء حادي عشرين جمادى الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) وخيّم على سمتها واحاط عسكرهُ بسائر جهاتها ونصب عليها المجانيق وضايقها وحاصرها ثمانية ايام. ثمَّ سألهُ الفرنج الأمان فأمَّنهم. وكان من عادتهِ اذا سألوهُ الأمان يؤمّنهم. فتوجَّه فرنجُ بيروت بامانةٍ الى صور وتسلّم بيروت ونصب السنجق السلطاني على قلعتها في نهار الخميس التاسع والعشرين من الشهر المذكور (١. وكان في البلد جماعة من المسلمين (٩؟) في ضيق بمساكنة الفرنج فانجلت عنهم الكربة ورأوا الفرَج بعد الشدَّة. وولّى السلطان على بيروت سيف الدين عليّ بن احمد المشطوب (٢ وكان اميرًا جليل القدر. ثمَّ ولّى عليها عزّ الدين أسامة بن منقذ احد ملوك بني منقذ (٣ وكان من المعظمين عند السلطان حتى لم يكن يقدّم عليهِ احدًا في المشورة والرأي.

---

١) ذكر ابو الفداء هذا الفتح في تاريخ سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) وقال انَّ صلاح الدين تسلَّم بيروت في السابع والعشرين جمادى (Historiens des Croisades, Hist. Orientaux I, 57) . وجاء في رواية اخرى: في التاسع والعشرين كما ذكر هنا ابن صالح

٢) هو الامير ابن مشطوب الهكاري ولّاهُ صلاح الدين بيروت مدَّةً وحارب معهُ الفرنج عند عكَّة. قال ابو الفداء في تاريخ سنة ٥٨٧ (١١٩١م): ولمَّا اشتد حصار الفرنج لعكَّة وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم خرج الامير سيف الدين علي بن احمد المشطوب وطلب الامان من الفرنج على مالٍ واسرى يقومون بهِ للفرنج فاجابوهم الى ذلك (اه). وارسلهُ صلاح الدين الى الفرنج فصالح باسمهِ ملك انكلترة ريكرد ثمَّ اقطعهُ صلاح الدين نابلس وفيها مات سنة ٥٨٨ (١١٩٢ م)

٣) اسامة هذا من مشاهير رجال عصره اسمهُ مؤيد الدولة ابو المظفَّر بن منقذ كان من اكابر بني منقذ اصحاب قلعة شَيْزَر وهو من الكتَّاب المفلقين ولهُ اخبار كثيرة. راجع كتاب خريدة القصر لعماد الكاتب وتراجم ابن خلكان (ص ٩٢ من طبعة باريس). ولهُ كتبٌ جليلة طبع منها العلم درِنْبُرغ قسماً منها كتاب الاعتبار ومنتخبات جزيلة الفائدة. توفي ابن منقذ بدمشق سنة ٥٨٤ (١١٨٩م)

وعزّ الدين اسامة المذكور هو الذي بنى قلعة شحاون. ومن الاتفاق انَّ عندي ديوان شعره بخطه. فكانت مدَّة استيلاء الفرنج على بيروت ثماني سنة وثمانية أيام

ثم استكمل السلطان فتوحات البلاد جميعها خلا صور وطرابلس والمرقب(١ وانطاكية امَّا صور فصعب اخذها لاجتماع الفرنج لها. وامَّا طرابلس فكان قد استولى عليها صاحب انطاكية وكان من جهة السلطان . واما المرقب فلأنَّهُ كان حصناً منيعاً لم يتعرَّض السلطان اليه . ثمَّ بعد ذلك حضرت سفن الفرنج في البحر الى صور فتوجهوا الى عكَّة فحاصروها. وحضر السلطان قبالتهم فكانوا محاصرين في زيّ محصورين مدَّة طويلة

وفي غضون ذلك بلغ السلطان مجيء صاحب الالمان (٢ من البرّ في مائة الف فارس فارسل قوماً يخربون سور صيداء وسور جبيل ونقل اهلها الى بيروت. ونقل الميرة الى هذه المدينة وشحنها بالرجال والسلاح وحصَّنها وجعلها قاعدةً (٣ لذلك الجانب. فكفى الله المسلمين شرَّ صاحب الالمان وسلَّط عليهم الفناء فهلك الملك وغالب عسكره. ووصل ولد الملك (٣ الى عكّة في دون الف مقاتل (٤ ولم يتعرَّض في طريقه الى بيروت ولا الى غيرها. ثمَّ غلبت الفرنج واخذت عكَّة في سابع عشر جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١١٩١م) وساروا منها الى يافا والسلطان في قبالتهم. وجرى بينهم حروب عظيمة حتى كلَّ الفريقان. فحصل بينهما هدنة مدَّة ثلاث سنين وثلاثة اشهر وثلاثة ايام اوَّلها مبتدأ ايلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (١١٩٢م) على انَّ البلاد الجبليَّة تكون للمسلمين والساحلية للفرنج. وصيداء وبيروت وجبيل للسلطان

وتوجَّه السلطان الى القدس ثمَّ الى ما تأخَّر في يدهِ من البلاد التي استنقذها من الفرنج ووصل الى بيروت واقام بها اياماً. وحضر اليه وهو مقيم بها بُيمُند الفرنجي (٥ صاحب طرابلس وانطاكية. وكان حضور السلطان الى بيروت ثلاث مرَّات. الاولى كانت على سبيل الغارة. والثانية لما فتحها. والثالثة هذه المرَّة المذكورة ومنها توجه الى دمشق فتوفي

---

١) المرقب اسم قلعة حصينة مشرفة على ساحل بحر الشام وعلى بُلُنياس

٢) هو الامبراطور فردريك بربروس مات غرقاً في نهر البَرْدان (Cydnus) قرب طرسوس سنة ١١٩٠ م وكان نزل فيه ليستحمَّ ٣) هو فردريك دوق دي صواب

٤) وقيل بقي معهُ ستَّة آلاف مقاتل

٥) هو بُوهيمُنْد الثالث ابن رَيْمُند دي بواتيه وسيِّد انطاكية

بها بكرة نهار الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (١١٩٣م). وحصل بعده خلاف وتفريق كلمة فطمعت الفرنج وحضروا بالسفن الى عكّة وكانت قد انقضت مدّة الهدنة (ص ١٥) المذكورة فخرجوا من عكة لقصد صيداء وبيروت

فصل في ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

كان عزّ الدين أُسامة بن مُنقذ والياً على بيروت فلمّا بلغهُ استيلاء الفرنج على صيداء خرج من المدينة بجماعتهِ واهلهِ. فلامهُ الناس على ذلك وعنّفوهُ وهجاهُ بعض الشعراء. وذلك انّ الفرنج كانوا حصروا حصن تِبْنين (١ وسألوا صاحبهُ تسليمهُ بالامان فقال بعض اهل الحصن لصاحبهِ :

سلّم الحصنَ ما عليك ملامَهْ لا يُلامُ الذي يروم السلامَهْ
فعطاء الحصون من غير حربٍ سُنَّةٌ سنّها ببيروتَ أُسامَهْ

وتسلّمت الفرنج بيروت في نهار الجمعة عاشر ذي الحجّة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (١١٩٧) وكانت مدّة استيلاء المسلمين على بيروت عشر سنين وشهرًا واحدًا واحد عشر يومًا. ورجع امر الفرنج في بيروت الى ما كانوا عليهِ قبل فتوح السلطان صلاح الدين المذكور. وكان اهل القرى التي حول بيروت مسلمين فأدّوا الطاعة والخراج للفرنج. وبقيت الولايةُ الجبليّة لعزّ الدين أُسامة ثمّ سار الى مصر

فصل في فتوحات بيبرس وقلاوون للسواحل

بعد ذكرنا استيلاء الفرنج على بيروت يجب ان نبيّن ملخّصًا امر فتوح السواحل ليكون ذكر فتوح بيروت الثالث واضحًا في موضعهِ

افتتح الملك الظاهر بِيبَرْس البُنْدُقداريّ (٢ قيساريّة وأرسوف (٣ وصَفَد وطبريّة

١) كذا في الاصل والصواب تِبْنين وهو حصن على مسافة ١٢ ميلًا من صور في شرقها الجنوبيّ

٢) هو رابع ملوك الدولة التركمانيّة في مصر ملك من سنة ٦٥٨ الى ٦٧٦ (١٢٦٠–١٢٧٧م)

٣) مدينة على ساحل بحر الشام بين يافا وقيساريّة على عشرة اميال من شمال يافا

ويافا والشَّقيف (١ وأنطاكية وبَغراس(٢ (١٥٧) والقصر(٣ وحصن الأكراد(٤ وحصن عكّار (٥ والقُرَين (٦ وصافيتا (٧ وحلبا (٨. وزاحف الفرنج على المَرْقب (٩ وبُلُنياس(١٠ وبلاد أنطَرطوس (١١. فلمّا افضت السلطنة الى الملك المنصور قلاوون الألفي (١٢ افتتح المرقب وطرابلس وما يليها واخرب طرابلس ونقلها الى سفح الجبل. واعطى اماناً لصاحب جبيل وصاحب بيروت. ثمَّ جرى بينهُ وبين فرنج صيداء وعكّة وعَثليث (١٣ اتّفاق على هدنة وعهد

ثمَّ بلغ الملك المنصور انَّ الفرنج بعكّة غدروا بالعهد وقتلوا جماعةً من تجّار المسلمين كانوا قد حضروا الى عكّة بمتاجر تمسُّكاً بالهدنة والعهد. ومن جملتهم تجّار حضروا في البحر ومعهم مماليك هديَّة للسلطان. فبرز المنصور قلاوون الى ظهر مصر قاصداً عكّة

---

١) يوجد موضعان بهذا الاسم احدهما شقيف أرنون (تصحيف اسم أرنُلد Arnauld) ولعلَّهُ هو المراد هنا وكان قلعةً حصينة جدًّا قرب بانياس من ارض دمشق بينها وبين الساحل. والثاني شقيف تيرون اي شقيف صور وكان ايضاً حصناً وثيقاً بالقرب من صور

٢) مدينة في لحف جبل اللُّكام بين انطاكية والاسكندرونة كان صلاح الدين فتحها ثم استرجعها الفرنج الى ان تغلَّب عليها بيبرس

٣) نظن انَّ المؤلف يريد قصر حيفا وهو موضع بين حيفا وقيسارية

٤) كان حصناً منيعاً وموقعهُ في غربيّ حمص على اربعة وعشرين ميلاً منها

٥) كان حصن عكّار من الحصون الحريزة في ايّام الصليبيين يبعد عن طرابلس نحو واحد وعشرين ميلاً في شماليها الشرقيّ

٦) القُرَين كان حصناً حريزاً على ساحل الشام ليس بعيداً من صفد كان يسكنهُ رهبان الفرنج المعروفون بالاسبتلارية (Hospitaliers)

٧) صافيتا قلعة وثيقة في جبال النصيريَّة

٨) مدينة صغيرة في شمالي شرقيّ عَرْقة على ميلين منها وعلى ١٦ ميلاً من طرابلس

٩) المرقب حصن في جنوبيّ شرقيّ اللاذقيَّة يبعد عنها ٢٦ ميلاً

١٠) بلُنياس بلدةٌ موقعها قرب المرقب على البحر كان القدماء يدعونها أبولُنية

١١) انطرطوس مدينة ساحليَّة هي اوَّل أعمال حمص مطلَّة على البحر في شرقيّ عرقة بينهما ثمانية فراسخ كان لها بُرجان حصينان كالقلعتين

١٢) هو السلطان منصور قلاوون الصالحيّ النجميّ تولَّى الملك سنة ٦٧٨ وتوفي سنة ٦٨٩ (١٢٨٠–١٢٩١ م). دُعي بالألفيّ لانهُ بيع في صغرهِ بالف دينار

١٣) عثليث قلعة حريزة على ساحل البحر تبعد ثمانية اميال عن جبل الكرمل جنوباً

فقضى الله بوفاته. وتسلطن ولده الملك الاشرف خليل[١] فاستمرَّ على قصد ابيه وحضر الى عكّة فاخذها بعد قتال شديد وذلك في يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) وقتل اهلها. فالقى الله الرُّعب في قلوب الفرنج فأخلوا صور وصيداء من غير قتال وكذلك حيفا. وتأخرت عثليث وقلعة صيداء التي في البحر. فعيَّن السلطانُ سنجرَ[٢] الحلبيّ وسنجر الشجاعيّ[٣] لفتحها. ثمَّ توجه السلطان من عكة الى دمشق ففُتحت عثليث وقلعة صيداء.

ولما فرغ سنجر الشجاعيّ من خراب قلعة (٢٢٣) صيداء توجَّه على خيل البريد الى دمشق ولحق بالسلطان عند رحيلهِ منها الى جهة مصر. فوكّل اليهِ نيابة الشام ورسم لهُ ان يعود الى بيروت وكانت داخلة في الطاعة الشريفة لانّ صاحبها كان قد ارسل الى السلطان وهو محاصر لعكة يطلب منهُ الامان فاجابهُ الى طلبهِ

فصل في ذكر فتوح بيروت ثالثًا

فلمّا وصل سنجر الشجاعيّ الى بيروت تلقّاهُ صاحبها وخيّالتهُ احسن مُلتقيً. ونزل في القلعة وامرهم ان ينقلوا اولادهم وحريمهم واثقالهم الى القلعة ففعلوا وظنّوا أنّهُ يفعل ذلك شفقةً عليهم. فلمّا صاروا في القلعة قبض على الرجال وقيّدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الاحد الثالث والعشرين من رجب سنة تسعين وستمائة (١٢٩١) . ثمَّ جهّز سنجرُ علَمَ الدين الداووديَّ والجاكيَّ[٤] الى جبيل فاستولى على اسوارها وقلعتها وابقى على اهلها وكانوا من الجَنَوِيّة

---

١) هو السلطان صلاح الدين خليل بن قلاوون الملقّب بالملك الاشرف تولّى السلطنة من سنة ٦٨٩ الى ٦٩٣ هـ (١٢٩٠ – ١٢٩٣م)

٢) سنجر الحلبيّ ولقبهُ علم الدين كان نائبًا على دمشق للملك المظفَّر قُطُز. ثم استولى على المدينة فارسل الملك الظاهر بيبرس عسكرًا لقتالهِ فقبضوا عليهِ اسيرًا. ذكرهُ ابو الفداء في تاريخ سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)

٣) هو علم الدين سنجر الشجاعيّ من امراء الملك الاشرف صلاح الدين خليل تسلّم صيداء وبيروت من يد الفرنج لمّا اخلوها واستنابهُ السلطان على دمشق ثمَّ عزلهُ. ولمّا صارت السلطنة الى الملك الناصر اخي الاشرف استوزر سنجرَ الشجاعيّ. ثم صارت وحشة بينهُ وبين الامير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة فحاربهُ كتبغا وغلبهُ وامر بقتلهِ سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤ م)

٤) لم نقف على شيء من اخبار هذين الاميرين. ولعلَّ في اسم الجاكي المذكور تصحيفًا

ثمَّ شرع سنجر الشجاعيّ في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء. ثمَّ جهَّز اهاليها الى دمشق وانفذهم منها الى مصر باجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء. ولما وصلوا الى مصر اطلقهم السلطان وقال: أماني باقٍ عليكم. وخيَّرهم بين العود الى بيروت او التوجُّه الى قبرس باجمعهم. وكانت مدَّة استيلاء الفرنج على بيروت في هذه النوبة (٢ ١١) خمسًا وتسعين سنة وسبعة اشهر وثلاثة عشر يومًا

ذكر بعض حوادث جرت في بيروت بعد الفتوح الثالث الى أيَّام المؤلف

ولنذكرنَّ الآن بعض حوادث جرت في بيروت بعد الفتوح. ولا بأس اذا تكرَّر ذكرها في اخبار الامراء من بني الغرب فتكون هذه الخلاصة تبيانًا لاحوالهم. وسنأتي ان شاء الله بذكر حوادث غيرها عند تفصيل اخبارهم

قال النويريّ: لمَّا حضر السلطان الملك الاشرف خليل بن منصور الى الشام سنة احدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢) افتتح قلعة الروم (١ كان ذلك في حضوره الثاني الى الشام بعد فتوح السواحل

وفي شهر شعبان سنة احدى وتسعين وستمائة توجّه الامير بيدرا (٢ قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجّه بصحبتهِ من الامراء الاكابر شمسُ الدين سُنْقر الاشقر (٣ والامير قرا سُنْقر المنصوريّ (٤ والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر

---

١) قال ياقوت: قلعة الروم قلعة حصينة في غربيّ الفرات مقابل البيرة بينها وبين سُمَيْساط كان بها مقام بطرك الارمن

٢) بيدرا كان من ماليك الملك المنصور قلاوون استنابهُ الملك الاشرف في دمشق ثمَّ جعلهُ نائبَ السلطنة ولم يلبث انْ دسَّ لوليّ نعمتهِ الدسائس فقتلهُ بمشاركة الامراء المماليك وعهدت اليهِ السلطنة بعد الاشرف وتلقَّب بالملك القاهر الَّا انَّ ملكهُ لم يدم الَّا يومًا واحدًا فقُتل سنة ٦٩٣ (١٢٩٤ م)

٣) شمس الدين سُنْقر الاشقر احد امراء المماليك استوظفهُ الملك الاشرف في دواوين الشام سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١) ثمَّ اعتقلهُ وامر بشنقهِ سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٣)

٤) قرا سُنْقر المنصوريّ كان مملوكًا للملك المنصور قلاوون فلقَّبهُ شمس الدين. شارك الامير بيدرا على قتل الملك الاشرف ورفع الملكُ زينُ الدين كتبغا شأنهُ وقرَّر لهُ الاقطاعات الجليلة سنة ٦٩٣ (١٢٩٣). وجعلهُ حسام الدين لاجين نائبُ السلطنة ثمَّ اعتقلهُ فافرج عنهُ الملك الناصر بعد

الدين بكتوت العلائي (١ وغيرهم. واتاهم من جهات الساحل ركن الدين بيبرس طُقصوا (٢ والامير عزّ الدين ايبك الحموي (٣ وغيرهما. والتقوا بالجبل وحضر الى الامير بيدرا مَن ثنى عزمَهُ وكسر حدَّتهُ لحصل الفتور في امرهم حتى تمكَّن الكسروانيُّون من بعض العسكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم. وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم اهل تلك الجبال حتى اضطرّ الامير بيدرا ان يطيّب قلوبهم ويُحسن اليهم وخلع على جماعة من اكابرهم (12). فأشتطُّوا في الطلب فاجابهم الى ما التمسوهُ من الإفراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتُقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم. وحصل لكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم. وحصل للامراء والعسكر من الألم ما اوجب تسريح بعضهم لسوء تدبير الامير بيدرا. ونسبوهُ الى إهمال امرهم واتّهموهُ بالفتور عن قتالهم حتى تمكَّنوا ممَّا تمكنوا منهُ لطمعهِ. واشاعوا انَّهُ تبرطل منهم واخذ رشوةً كبيرة واحتجَّ الناس بذلك (٤

ثمَّ توجَّه الامير بيدرا بالعساكر الى دمشق فتلقَّاهُ السلطان واقبل عليهِ وترجَّل عند ترجُّلهِ للسلام عليهِ. ولمَّا انكر عليهِ سوء اعتمادهِ وتفريطهِ في العسكر عمل كلامُ السلطان فيه حتَّى مرض لذلك وشيَّع الناس انهُ سُقي السمَّ. ثم عوفي في العشر الاوَّل من رمضان فتصدَّق السلطان بجملةٍ كثيرة من المال شكرًا لله على عافيتهِ واطلقوا جماعةً كثيرة ممَّن كانوا في السجون. وتصدَّق الامير ايضًا وترل عن كثيرٍ ممَّا كان اغتصبهُ من املاك الناس. وجمع العلماء والقضاة والقرّاء والمشايخ في العاشر من رمضان بالجامع (الاموي) بدمشق

سنة وشهرين واعطاهُ نيابة السلطنة بحماة ثم بدمشق وحلب ثم اتصل بالتتر مع اقوش الافرم سنة ٧٠٢ (١٣٠٢) وخدم خربندا ومات نحو سنة ٧٢٠ (١٣٢٠)

١) بكتوت العلائي، وبكتوت الاتابكي كلاهما من امراء الملك الاشرف لم نحصل على شيء من اخبارهما

٢) ركن الدين بيبرس طُقصوا كان اميرًا للاشرف تغيَّر عليهِ سيده مدَّةً فاعتقلهُ ثمَّ سرَّح سبيلهُ ثم قتلهُ سنة ٦٩٢ (١٢٩٣)

٣) عزّ الدين ايبك الحموي احد امراء الملك الاشرف بقي مدَّة بالامارة بعدهُ واعتقلهُ حسام الدين لاجين مع غيرهِ من الامراء سنة ٦٩٧ (١٢٩٨) ثم تولَّى نيابة حمص وتوفي سنة ٧٠٣ (١٣٠٣)

٤) ورد خبر غزوة الامير بيدرا لكسروان في تاريخ المماليك للمقريزي. وتفاصيلها لا تختلف عمَّا ذكرهُ المؤلف هنا

لقراءة خَتمةٍ (١ واشتعل الجامع في هذه الليلة كما يشتعل في نصف شعبان. وكان الذي اخبر السلطان ان بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طُقصُوا فاسرَّ بيدرا الامر في نفسه وتربَّص له. فلمَّا قبض السلطان على لاجين (٢ في عيد الفطر من السنة المذكورة خاطب بيدرا السلطانَ في القبض على بيبرس طُقصُوا فقُبض (١٢) عليهِ مع لاجين لانهُ كان قد تزوج ابنتهُ (ستاتي البقية)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

هذا ولم ينفك طلاَّب انيسة عن ملاحقتها. وانَّما توقَّف فارس عبُّود وحدهُ عن الالحاح لما رأى ثبات عزمها. لكنهُ عمد الى حيلة نغَّصت عيشها. فانهُ دنا منها ذات يوم وفي يدهِ رسالة حاشيتُها سوداء. وقال لها: قد وصلت اخبار عن حنَّا الطويل

فلما سمعت انيسة ذكرهُ برقت عيناها وسألت قائلة: ما يكون الخبر؟ فاجاب فارس بمظاهر الحزن الشديد: ما هو خبر سارّ

— اهو مريض؟

— ياليته... لكن..

— أمات؟ قل بحياتك قل لي الحقيقة. لا تخفِ عني شيئاً

فلم يكن من فارس الَّا انه نشر تلك الرسالة وقرأ مضمونها. وكانت من احد انسباء حنَّا غنطوس المقيم في الاسكندريَّة وهو يقول فيها ان المركب الانكليزي الذي سافر عليه حنَّا

١) قراءة الخَتْمة هي رتبة دينيَّة عند المسلمين يُقرأ بها القرآن على تمامهِ

٢) لاجين هو حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير احد امراء الملك الاشرف قبض عليهِ سيِّدهُ في دمشق مع الامراء سنقر الاشقر وجرمق وبكتوت وبيبرس طقصوا واعتقلهم مدَّة في مصر وامر بشنقهم الَّا انَّ وتر الامير لاجين قُطع فنجا من الموت ثم اتَّفق مع الامراء على قتل الملك الاشرف. واستولى على السلطنة بعد الملك العادل كتبغا سنة ٦٩٦ (١٢٩٧) وقتل سنة ٦٩٨ه (١٢٩٩) قتلهُ المماليك

قد غرق وان كلَّ الركاب هلكوا وان الرُّبان مع بعض الملاَّحين تمكنوا وحدهم من النجاة

وكان وجه انيسة وقت القراءة قد علاه اصفرار الموت وكل جسمها يرتجف . فقال فارس بكل فظاظة :

لم يعد لكِ اذن من رجاء . فانظري في ما تعتمدين . فان قلبي لم يزل على حاله رغمًا عن رفضكِ في الماضي . فانتِ الآن فقيرة يتيمة لا سَند لكِ ومع ذلك اني اعرض عليك اليوم كمن قبل ان تكوني شريكتي في مالي وبيتي وارزاقي . فهل تقبلين ؟

فلما سمعت انيسة هذا الكلام عادت الى نفسها وكفكفت دمعتها وقالت له بتمام العزم :

انت يا فارس اظهرت في كل آن الصدق والمروءة وطالما دفعت عني شرَّ المضطهدين . وافضل وسيلة لابدي لك شكري هي ان اخاطبك اليوم بصراحة . اعلم يا فارس اني لست مُطلَقة الحرية فقد حلفتُ حلفًا انني انتظر رجوعه . فلا أخاف وعدي ولو قُضي عليَّ الصبر ثلاثين سنة . والآن اكرر امامك اليمين اني اثبت على عهده ولو نزلت الى قبري . انما قلبي يحدثني انهُ حتمًا لم يمت وانه لا ريب يعود

فلما تأكد فارس ثبات عزمها زينت له مروءتهُ ان لا يعود الى ملاحقتها . وقد أُعجب بشهامتها فقال لها بصوت التأثر :

انيسة انكِ حرَّة وليس لي عليكِ حق . ولكن اذكري دائمًا ان فارسًا عبدًا مخلصٌ لكِ وانهُ يجود في سبيلكِ بكل عزيز ليبرهن لكِ عن ودادهِ

وفي الواقع ان فارسًا لم ينفك من ذلك الحين عن الاحسان اليها

٨

وفي تلك الاثناء كانت انيسة ساكنة عند احد الجيران المسمَّى ناصرًا . فاتفق ان ابنه عاد من مصر مصابًا بمرض العيون وما مضى على رجوعهِ خمسة عشر يومًا الَّا وبُلي بالعمى . وكانت انيسة ترثي لحاله فتسهر عليه في مرضهِ وتعتني به وتلازمه رحمةً به حتى انتقلت اليها العدوى وفقدت البصر . . . . وقد مات ناصر وسافر اولاده . فطلبنا حينئذٍ من انيسة ان تسكن معنا ووعدناها اننا نحبها ونخدمها طول العمر فقبلت طلبنا . فاحلف لكِ يا خواجا انه مضى عليها في بيتنا اكثر من ستّ سنوات ولم نتكلف عليها شيئًا وليس لنا في ذلك ادنى فضل فهي لطيفة رقيقة قنوعة . وحياتك يا خواجا انها قديسة حقًّا ويكفينا ان نلتقي اليها النظر حتى نحتمل بصبر كل اكدار المعيشة ونصنع الخير . فاولادنا يحبونها حبًّا شديدًا ويكرمونها

كما يُكرَم عبيد الله وتراهم يتسابقون الى خدمتها ويتنافسون لعمل ما يرضيها . . .

فتنهد المسافر وقال : انيسة تتسوَّل

فتوهمت المرأة انهُ يوجه اليهم اللوم فقالت : نعم انها تتسوَّل ياسيدي . على اننا لسنا المذنبين . فلا يخطر ببالك اننا نسينا فضل انيسة علينا . وكما نحب ان نقاسي الجوع كنا ولا نخرج للاستعطاء . ولكن ما الحيلة . فاننا بذلنا جهدنا حتى منعناها التسوُّل فاستمت مدَّةً حتى كثر عدد اولادنا . فافتكرت انيسة انَّ وجودها يُثقل علينا وطلبت ان تسعفنا بطريقة من الطرائق . فلم تجد وسيلة فحزنت جدًا حتى مرضت . فاخذت تبكي وتطلب الينا ان نسمح لها بالتسوُّل . فلم نرَ بدًّا من اجابة طلبها

وعلى كلٍّ ياسيدي ليس ذلك عارًا على ابنة ضريرة . وان نكن فقراء فليس والحمد لله يعوزنا شيء . وغالب الاحيان تجبرنا على ان نقبل منها مما تجمعه . ولا يمكننا ان نبقي معها دائمًا في نزاع . ولكن ما نأخذه بيدٍ نردُّه عليها بالأخرى اضعافًا فاننا ولو على غير علم منها نكسوها ثيابًا افضل من ثيابنا ونقدم لها طعامًا احسن من طعامنا وكل يوم نقدم لها شيئًا زائدًا . فالآن مثلًا ترد على عشائها بيضتين . امَّا ما يبقى معها من صدقات المحسنين فانها تحفظهُ لاولادنا حتى يكبروا كما فهمتُ ذلك من معنى كلامها . حقًا يا خواجا مثل هذه القديسة تستحق اعظم مكافأة على حسناتها ولكن لسوء الحظ نحن عاجزون عن مقابلتها بغير الشكر

هذا والمسافر يصغي كل الاصغاء الى تفاصيل الحديث لا ينطق ببنت شفة ولا يبدي حركة . بيد انهُ كان يدخن بالنارجيلة وثغره يفترُّ ابتسامًا وعينهُ تغرورق بدموع الفرح ويدهُ تلاطف الصبيَّ وكلُّ ملامحهِ تدلُّ على ما خامرهُ من التأثر وداخَلهُ من الحبور

فصمتت المرأة واقبلت على مغزلها تديرهُ . فبقي المسافر ساعة وهو غائص في بحر الافكار السارَّة ثم ترك الصبيَّ ومشى الى الحائك وقال لهُ : دع عنك شغلك هذا

فلم يفقه الحائك معناهُ ولبث في حيرة من لهجته

فصاح المسافر : دع عنك هذا النول ومدَّ يدك لأُصافحها ياصاحب معمل الحرير

فكرَّر الحائك باندهاش : انا صاحب معمل الحرير . أ انَّك تمزح يا سيدي

— هيَّا واطرح هذا النول فاني اهبك معملًا كامل المعدَّات تُدير دواليبهُ آلةٌ بخاريةٌ . وكأني اراك لا تثق بكلامي مع اني لا انطق بغير الحقيقة

قال هذا واخرج من جيبه قبضة دنانير واردف قائلًا :

ليس ما يمنعني من ان اعطيك هذا المال في الحال . ولكنك احبّ اليَّ وارفع في عيني من ان اضع في يدك ذهبًا . فانني اجعلك صاحب معمل عظيم واهتمّ كل الاهتمام بمستقبل اولادك فلا يتهددهم شيء حتى بعد موتي . والفضل في ذلك لأنيسة . فانكم احسنتم الى الضريرة واويتموها واكرمتم مثواها واحببتموها . فاذا خطبها أكفأكم عنها فابرهن بصنيعي هذا على ان الاحسان لا يضيع . لقد اخذتم بساعد انيسة في الضراء فيحق لكم ان تشاركوها في السراء . وما كانت انيسة لتهجركم . يا صاحب المعمل لسنا نفترق عنكم مدى الحياة

قال هذا وقبض على يد الحائك يصافحها ويهزها بشدة كما هي عادة الاجانب عند المصافحة . فتبادل الحائك ولمرأته نظرة التأثر ولم يقويا على ادراك معناه حق الادراك . فحاول المسافر ان يزيدهما ايضاحاً واذا ببطرس الصغير جذبه بثوبه كأنه يرغب في ان يقول له كلاماً ذا شأن

فسأله الرجل : وما لديك يا حبيبي ؟

فاجاب الغلام : يا سيدي حقاً قد جاءت الساعة التي فيها تعود انيسة فهل تريد ان اذهب لملاقاتها فابشرها بقدومك

فاخذ الرجل بيد الصغير وسار به نحو الباب قائلاً : هيّا . وسر امامي نحوها

وهكذا خرج مع الصبيّ واسرع يوسع الخطى في القرية . فلما شاهده اهل القرية على تلك الحال برزوا من البيوت رجالاً ونساء فرأوا بطرس الصغير مرتدياً بثوبه القصير حافياً حاسر الرأس يطفر الى جانب الغريب قابضاً على يده يكالمه ويمازحه .

فاخذ منهم العجب مأخذه ولم يكونوا يعلمون ما هي العلاقة بين الصبيّ وهذا الخواجا الغني الذي عدوه اقلّها يكون قنصلاً . ومن يصف عظيم اندهاشهم لمّا رأوا الرجل انحنى نحو الصغير وقبّله

فازدحم الواقفون بالابواب وكثر الحدس والتخمين . وكان للنساء من الحديث النصيب الاوفر . وذهب القوم مذاهب شتى اقربها الى الصواب هو ان هذا الخواجا الغني او القنصل خطر له ان يتبنى الصبيّ فسار به ليتمّ بتربيته . وذلك لمرٌ ليس بالنادر . والحقّ يقال ان بطرس ابن الحائك سركيس كان اجمل صبيان الضيعة يستميل اليه القلوب بعينيه الزرقاوين ولوائح الذكاء والنجابة البادية على محيّاه الصبوح . ولكن بعض العقلاء لاحظوا

انهُ لمن المستغرب ان يتبنّى الخواجا الصبيَّ ويسير به حافياً

ولم يمضِ القليل الّا اصبح اهل الضيعة في الطرق لا يشغلهم شاغل عن الحديث في هذا الامر وبودّهم لو يسألون الغريب ايضاحاً ولكن لم يكن منهم مَن يجسر على السوءال. فكلّهم تهيّبوا ممّا رأوا من طول قامته وكبر قبعته ولم يخطر لاحدٍ منهم ببال ان الرجل ابن الوطن . . .

٩

وبينما هم في قيل وقال كان الغريب يجري حثيثاً لا يلوي على عنان. وقد خُيل لهُ ان القرية كلها اضاءت بنور سماويّ فتراءت لهُ بمشاهد لم يجد لها مثيلاً في المدن والعواصم التي زارها في اسفاره. وقد لاحت الرياض لعينه مكتسية بحلّة خضراء بهيجة وزفّ اليه النسيم نفحات زكية تنعش القلب. وبدت لهُ البيوت الحقيرة بمظهر العظمة والجلال. وكأنهُ شُغل عن الصبي فمال بكليّته الى دواعي الفرح والنعيم وقد شخصت عينهُ الى مكان بعيد كأنَّ بصرهُ يحاول ان يخرق حجاباً كثيفاً من شجر التوت يخفي عنهُ منعطف الطريق. واذا بالغلام يجذبهُ بشدَّة ويهتف قائلاً: هناك. هناك. انيسة مع اختي روزة

واذا بشبح ابيض ظهر بين خلال التوت ثمَّ تقرَّب فرأى المسافر ابنة ضريرة لم تَعُد في مقتبل العمر تقودها طفلةٌ في الخامسة من عمرها

فما وقعت على الضريرة عين المسافر الّا وقف في مكانهِ لا يتحرَّك وتأمل بحزن بتلك المسكينة وهي تمشي الهوينا نحوه. . . أتلك هي انيسة المحبوبة. . . أتلك هي الفتاة الجميلة التي لا تزال مطبوعة على صفحات قلبهِ صورتها اللطيفة. بيد انهُ لم يكن الّا اخفّ من ارتداد الطرف حتى بادر مسرعاً الى الفتاة ولمّا دنا منها لم يتمالك ان صاح: انيسة انيسة

فما سمعت الضريرة صوتهُ حتى شعرت في جسمها بهزَّة كادت تسقط بسببها مغشيًّا عليها ثم تركت يد الابنة الصغيرة ومدَّت ذراعيها الى الامام كانها تطلب شيئاً وصاحت: حنّا. حنّا. وركضت الى ذاك الذي ناداها وفي يدها صليبٌ من الفضة اخرجتهُ من صدرها واشارت اليه بحركة لا توصف ووقعت بين ذراعي حنّا غنطوس. فحاول هذا ان يعانقها بمزيد الشوق فمانعتهُ بلطفٍ واذ ساءهُ امتناعها امسكت بيده وقالت:

يا حنّا. لا اقوى على مثل هذا النعيم. . . لكنني عاهدت الله. . . فهيّا بنا الى المقبرة فلم يدرك الرجل لها غايةً. غير انّهُ فهم من لهجتها انّ لذلك سبباً خطيرًا فلبى

طائعاً. وسار بها الى المقبرة وهو لا يبالي بالقرويين الذين تواردوا من كل صوب واحدقوا بهما

فمضت به انيسة الى احدى زوايا المقبرة ودنت من بلاطة ضريح قد غار نصفها تحت التراب فاومأت بيدها اليها وقالت: هنا رقدوا. ففهم مغزى كلامها وانحدرت من عينيهِ الدموع

فاردفت انيسة قائلة: اتذكر يا حنا ملتقانا هنا في يوم من ايام الربيع لخمس وعشرين عاماً مضت. لقد كنت في تلك الايام اتمتَّع بنور الشمس . . . فكانت الطبيعة حينئذٍ كأنها في جذل والزهور تبسم عن ثغرها الفتَّان بين القبور والطيور فوق اشجار المقبرة تغرّد طرباً. ونحن وحدنا كنَّا فريسة الاحزان. أوتذكر ذلك ؟

— اذكرهُ كأنهُ جرى يوم امس

— كنَّا نذرف الدموع لأنك كنت عازماً على السفر الى الاقطار الشاسعة. فاستحلفتني بحق امّك التي احببتُها كأمّي . ان انتظر رجوعك فوعدتك بذلك وقبلت منك عربوناً على العهد بيننا هذا الصليب الفضي. أتذكر يا حنَّا

فلم يُحِرِ الرجل جواباً وكادت تخنقـهُ العبرات. وهو الذي لم يعبأ بالاخطار والاهوال اصبح يبكي ويشهق كالطفل

فقالت انيسة : لم يمضِ عام ألّا جئتُ الى هذا المقام في تاريخ يوم سفرك لأجدّد العهد. وقد جددتهُ اكثر من عشرين مرَّة. ولو طالت غيبتك ايضاً لما أخلفت لك عهداً ولا ظننت بك سوءا . واليوم لا يسعدني الدهر بان امتع بمرآك عينيَّ بيد انني اجدك قريباً مني واسمع صوتك الشجي كمن ذي قبل. فكفاني نعيماً يا الهي. وما انا باهل لمثلها نعمة. فلنشكرنَّ الله يا حنا على انهُ جاد بجمع شملنا بعد مرّ الفراق. هيَّا نجثو ونستمطر غيث الرحمات على من رقدت هنا تحت الثرى وهي ترانا من العلى وتستمدّ لنا البركات

قالت هذا وجثت على ركبتيها ولثمت بلاطة الضريح فاقتدى خطيبُـها بها. فهتفت قائلةً: صلِّ صلِّ فقد عاهدت الله على ذلك

ثم رفعت يديها نحو السماء وصلَّت بصوتٍ منخفض ثم نهضت ونهض حنا فعانقتهُ وضمتهُ شديدًا الى صدرها فخارت قواها لما عراها من التأثر ووقعت بين يديهِ. ولولا دموعها المدرارة وتبسّم ثغرها لخُيِّل للرائي ان روحها فارقت جسدها

وكان بطرس الصغير ينظر بفرح الى هذا المشهد ويصفّق بيديه طرباً ويصيح قائلاً: هذا حنَّا الطويل. هذا حنا الطويل

(ستأتي البقيَّة)

كتب شرقية جديدة

Publications de l'École des Langues Orientales vivantes

كتاب زُبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري

اعتنى بتصحيحه بولس راويس

Imprimerie Nationale, Paris ; éditeur, Ern. Leroux, in-18, 157 pp.

غاية هذا الكتاب شرح احوال المملكة وسياستها ومراتب اربابها وبيان خِدَمها وادارتها. وقد اعتمد المؤلف بذلك على ما شاهدهُ بالعيان في بلاد مصر او تحقّقهُ من نقل الثقات في زمانهِ باوائل القرن الخامس عشر للمسيح. وكان الظاهريّ صنَّف في ذلك كتابًا واسعًا يشتمل على مجلَّدين ضخمين قسمها الى اربعين بابًا سمّاهُ كشف الممالك. فلمّا رأى ذلك التأليف مطوّلًا اختصرهُ بهذا المجلّد في عشرة ابواب ضمَّن اولها لمعةً من وصف مصر والشام والحجاز. ثم انتقل وشرح بالتفصيل احوال السلطنة ولوازمها ثم مراتب قاضي القضاة والعلماء وائمّة الدين ثم وصف الوزارة وما يقتضي لاصحابها من السجايا والخصال الى ان بيَّن ما يختص بالوظائف العسكريَّة والدواوين المختلفة التي تتركَّب منها الدولة والمراكز وغير ذلك من الرُّتب والخدم كالاصطبلات والمطابخ والصيد الخ. وختم ذلك بذكر امراء العربان ومشايخهم وامراء التركمان والاكراد ووصف التجاريد. وقد اجاد في هذه التفاصيل ولا غرو لانَّهُ كان هو ايضًا من ارباب الدولة تولّى الوزارة مدَّةً فقام باعبائها احسن قيام

واذا قابلنا هذا الكتاب مع تأليف القلقشندي الموسوم بصبح الاعشى في صناعة الانشاء رأينا بينهما مشابهة في بعض الفصول وان كان كتاب القلقشندي اوسع منهُ بيانًا واغزر مادّة. ولكن كما سبق آنفًا ليس كتاب الظاهريّ الّا ملخّصًا لكتاب آخر لم يبلغ الينا

فنثني على جمعيّة اللغات الشرقيَّة التي سعى بعض معلميها بنشر هذا السفر الجليل ونتمنّى لها التقدّم والفلاح كي لا تزال تتحفنا بما تجدهُ من التآليف المفيدة ل. ش.

هدايا أُرسلت الى ادارة مجلّة المشرق

١ نابليون الاول والمقابلة بينهُ وبين اعظم مشاهير الرجال نقلها جناب الاديب الشيخ سليم خطّار الدحداح عن اصلها الفرنساوي وألحقها بنبذة من قلمهِ في شارل الثاني عشر وبطرس الاوّل (يباع في مكتبة الخواجا موسى افندي صفير)

٢ جزءان من المجلّة الموسومة باسم الكردينال الشرقيّ الشهير بساريون (Bessarione) وتاريخ صدورها الاول في غرة آذار سنة ١٨٩٦ . وهي مجلّة شهرية كثيرة الفوائد تبحث عن الامور الشرقية تطبع في سيَّنا ينشئها قومٌ من افاضل الكتّاب الايطاليين تحت ادارة المنسينيور نيقولا ماريني

٣ (التقويم المصري) لسنة ١٨٩٨ تأليف جرجس روفائيل كحيل يحتوي ١٩٢ صفحة طبع بمطبعة الهلال

وقد وردنا العدد الاوّل من المجلاّت المصرية الآتية : تسلية الخواطر . وانيس الجليس . والفكاهة

أسئلة وأجوبة

س سألنا الخواجا شكري حوّاء عن سبب انقطاع نبع نهر بيروت المعروف من العامّة بالديشونيّة فغالب الاحيان ينقطع فجأةً مدّة ساعاتٍ وبعض الاوقات مدّة يومٍ او يومين ثم يرجع الماء لمجراهُ من تلقاء ذاته

ج لم يتسنَّ لنا ان نشاهد النبع المذكور مدّة كافية لنتمكّن من تحقيق الخبر . فانَّ صحَّ قول الكاتب الاديب فيكون نبع بيروت من جملة الينابيع المعروفة بالدوريَّة . وهي التي تجري تارةً وتنقطع تارةً أُخرى . ولهذا الانقطاع سببان

السبب الاوّل ضغط بعض الابخرة او الغازات . وذلك انَّ المياه اذا ما تجمَّعت وتوفَّرت في حوضٍ تحت سطح الارض لهُ منفذ الى الخارج تضغط عليها الغازات المخزونة هناك ضغطاً كافياً لدفعها في المنفذ المذكور . فاذا جرى الماء نقصت كميّتهُ فيخفُّ ضغط الغاز وينقطع جريان الماء . ويشترط في الفسحة الخالية التي يتجمَّع فيها الغاز فوق حوض الماء ان تكون محكمة السدّ لئلاَّ يتبدَّد الغاز بين شقوق الصخر

والسبب الثاني وهو الاكثر وقوعاً يُفترض فيهِ وجود مجرًى معقَّف يتّصل من حوض

الماء في باطن الارض الى موضعٍ خارج ينفجر منهُ وأن تربي كمية الماء التي يصرفها على التي تَرِدُ الحوض وتمدهُ . فاذا ارتفعت المياه في الحوض ترتفع ايضاً بقدر ذلك في المجرى المقنطر بحسب قاعدة مساواة المائعات في الاوعية المتصلة . وعند ما يوازي علوُّ سطحها في الحوض اعلى نقطة من المجرى المقنطر يتكوَّن منهُ مصٌّ تنحدر فيهِ المياه وتنصرف الى الخارج. وتظلُّ جاريةً الى ان ينخفض سطحها الى فوهة المجرى في الحوض فيبطل المص وينقطع الماء عن الجري . ويبقى منقطعاً الى ان تتجمَّع من جديد المياه في الحوض وترتفع فيهِ الى مساواة اعلى المقنطر فتعود الى الجري وهلمَّ جرًّا. فيكون الينبوع دوريًا يجري ماؤُه مدة وينقطع مدة . ويمكن ان يكون وقت جريان الماء وانقطاعهِ منظّماً او على غير نظام حسبما يكون السبب . فاذا كان ورود الماء الى الحوض بقدرٍ معيَّن وفي زمن محدود يكون وقت الجري والانقطاع منظماً والَّا فلا ا.ص.

س جاءنا من بعض ادباء مصر : قرأنا في الجزء الحادي عشر من الهلال (ص٤٢١) تحت عنوان (العين والشياطين) جوابًا على سؤالٍ وردهُ في ذلك ونصُّهُ : «لا يعتقد علماء الطبيعة بتأثير العين لأنهم لا يرون فيها ما ينطبق على نواميس الطبيعة ولا يعتقدون بوجود ابليس ولا بغيرهِ من الارواح الشريرة» . فما قول المشرق في افتاء الهلال

ج انَّ جواب الهلال الاغرّ بخصوص تأثير العين صحيح وان صَعُب على الطبيعيين شرح بعض مفاعيلها في مواقع كثيرة . اما نسبتهُ للطبيعيين انهم لا يعتقدون بوجود ابليس والارواح الشريرة ففيهِ نظرٌ . فان اراد بالطبيعيين الكَفَرة والماديين فقد صدق امَّا اذا اراد بهم العلماء السديدي الآراء فننكر مزاعمهُ . وذلك لاسباب اولها انَّ اكبر علماء الفلسفة واساتذة الطبيعيَّات اقرّوا بذلك واثبتوهُ في كتبهم . ثانيها أنهُ لا يوجد شعب واحد في جميع اقطار المعمور الَّا واعتقد بوجود ارواح شريرة وان اختلفوا في اسمائها . ومن مبادئ الفلاسفة انَّ ما يتفق عليهِ كلُّ الامم لا يكون الَّا صادقاً . ثالثها انَّ كتبنا المقدَّسة بل الاديان كلَّها على اختلافها لسان واحد في تقرير هذا الامر لا يجحدهُ الَّا من مَرَق من الدين . ولا نخال صاحب الهلال يذعن لمقالهم . رابعها أنهُ يوجد في العالم بعض مفاعيل خارقة الطبيعة لا يمكن نسبتها له تعالى ولا للملائكةِ فلا بُدَّ ان تعزى لارواح شريرة بسماح الله عزَّ وجلَّ

س كتب لنا الخواجا باسيل جبارة من فضلاء حماة : جاء في الصفحة الاولى من تمهيد العهد الجديد (من طبعة الآباء اليسوعيين) ما يأتي : «قال القديس اوغسطينوس وهو

ممن تلقّى عن الآباء الذين شافهوا تلاميذ المسيح وعن القديس يوحنا الحبيب عينهِ انّ..."
وكيف تلقّى القديس اوغسطينوس عن هؤلاء. وقد عاش بعدهم بنيف ومائتين سنة ؟

ج لا يُراد تلقّي الامر بالمشافهة او العيان وانّما المنويّ ان القديس اوغسطينوس اخذ تعاليمهُ من نفس كتب الآباء الرُسليين ومن انجيل القديس يوحنا الحبيب ورسائلهِ كما يُصرّح بذلك مرارًا في تآليفهِ العديدة. وفي الكنيسة كما لا يخفى صنفان من التعليم الواحد يُحصل عليه بالتقاليد الصحيحة المتسلسلة بالاسانيد الى الرُسل. والثاني يكون بالنظر في الكتاب الكريم او في اعمال من عاصروا رُسل المسيح فمن هذا القبيل يصحّ القول انّ القديس اوغسطينوس وكل الآباء واللاهوتيين بعدهُ تلقّوا تعاليمهم من تلامذة المسيح او ممن عاشوا بعدهُ بقليل

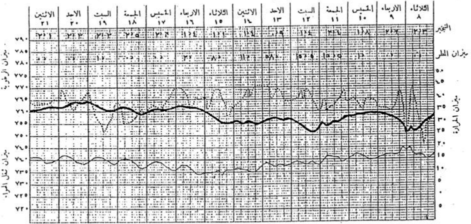
س وسألنا حضرة الاب الفاضل القس جبرائيل قرياقس من بغداد لمة من اخبار الاسقف جبرائيل الكلداني الذي ورد ذكرهُ في الجزء الرابع من مجاني الادب (ص٢٩٦)

ج وُلد الاسقف جبرائيل الكلداني نحو سنة ١٥٧٠ ونشأ على البدعة النسطوريّة ثم امتاز بين اهل وطنهِ بالعلم والفضل فاقيم اسقفًا على حصن كيفا. ولمّا كانت السنة ١٦١٦ جمع ايليّا السادس بطرك الكلدان مجمعًا في آمِد (ديار بكر) وتباحث مع الاساقفة النساطرة في امر الخضوع للكنيسة الرومانيّة فكان الاسقف جبرائيل اوّل من لبّى الى دعائهِ ووافقهُ على نبذ الشيعة النسطوريّة ثمّ سافر الى رومة ودخل على البابا بولس الخامس وامتدحهُ بقصيدتين من اجود القصائد الكلدانيّة طمعًا مغتربين الى اللاتينيّة. وكانت وفاة الاسقف جبرائيل سنة ١٦٢٠ . وقد جاء ذكرهُ مرارًا في المكتبة الشرقيّة للسمعانيّ

س وسألنا ر. ح. من بيروت ما اصل العادة الجارية في هذه المدينة وفي بعض المحلّات المجاورة ان يخرج الناس في اوّل يوم من الصوم الكبير الى خارج البلدة لاستقبال الراهب كما يزعمون

ج لا نظنّ ان هذه العادة قديمة وما يظهر لنا الارجح في بيان اصلها انّهُ كان يحضر راهب في اوّل الصوم موسلًا من قبل البطرك لتبليغ اوامرهِ للشعب وارشاد المؤمنين فكان الاهلون يخرجون لملاقاتهِ باكرام واحتفال. ثمّ جرت هذه العادة حتى صار الناس مداومين عليها في السنين التالية بعد ان بطلت عادة ارسال الراهب واضحى هذا اليوم عند بعض الجهلاء يوم نزهة وكان الاولى لو يقدّسونهُ باعمال التوبة والصلاح ل. ش.

قائمة للآثار الجويّة من ٨ الى ٢١ شباط ١٨٩٨



انّ الخطّ الضخم (▬) يدلّ على ميزان ثقل الهواء المعروف بالبارومتر – والخط الرفيع المتابع (—) على ميزان الحرارة (ترمومتر) – امّا الخطّ المنقّط (....) فهو دليل على ميزان الرطوبة (هغرومتر) – والاعداد الدالّة على درجات ثقل الهواء تدلّ ايضاً اذا حُذف منها عدد المئات على درجات الرطوبة – وقد عُيّن التبخير وميزان المطر في ٢٤ ساعة بالمليمترات وعشر المليمترات